المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

تمرّد في السفينة بارونتي

ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

دار العلم للملايين
بيروت

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

- سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلبي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة .
- اشرف على تلخيصها عن روائع الادب العالمي نخبة من كبار الكتاب العرب .
- اخراج جديد . لوحات بالالوان تجليد فاخر .
- صدر منها :

١ ـ روبنسون كروزو
٢ ـ كوخ العم توم
٣ ـ آخر ايام بومباي
٤ ـ جزيرة الكنز
٥ ـ البؤساء
٦ ـ دايفيد كوبرفيلد
٧ ـ حول العالم في ثمانين يوما
٨ ـ قصة مدينتين
٩ ـ اوليفر تويست
١٠ ـ الزنبقة السوداء
١١ ـ القلعة
١٢ ـ مرتفعات ويذرنغ
١٣ ـ الفرسان الثلاثة
١٤ ـ آيفنهو
١٥ ـ دون كيشوت
١٦ ـ بائعة الخبز
١٧ ـ احدب نوتردام
١٨ ـ طفل من غير اسرة
١٩ ـ كولومبا
٢٠ ـ تمرّد على السفينة باونتي

تمرّد على السفينة باونتي

مسح ضوئي واعداد الكتروني
احمد هاشم الزبيدي
٢٠١٧م

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

تمرّد في السفينة بارونتي

تأليف
تشارلز نوردهوف

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى

آب (أغسطس) ١٩٧٩

١ . إبحارُ السفينة باونتي

في أوائلِ ربيعِ ١٧٨٧ تُوُفِّيَ والدي، «بِذَاتِ الجَنْب»؛ ولم يَبْدُ على والدتي كثيرٌ منَ الحُزْنِ، رغمَ أنّها كانت سعيدةً، غايةَ السعادةِ، في حياتِها الزوجيَّة.

كانت والدتي تجمعُ إلى حبِّها العلومَ الطبيعيةَ، التي وصل والدي بفضلها إلى عُضوية «الجمعية الملكية»، حُبَّ الطبيعة؛ فكانت تُفَضِّلُ العيشَ في «ويثيكومب» على الحياةِ في المدينة.

وكان قد تَقَرَّرَ أن أدخُلَ، في ذلك الخريفِ، إلى مدرسةِ «ماغدالان» بأكسفورد، حيث تعلّمَ والدي.

في ذلك الصباح، من أواخرِ شهرِ تموز، كنا أنا ووالدتي في الحديقة. كان الجوُّ دافئاً، والهواءُ مشبعاً برائحةِ الورد. وجاءتِ الخادمةُ تحملُ خِطاباً لأُمّي. فجلستْ على مَقْعدٍ قروِيٍّ، وراحتْ تقرأُه. ولما انتهتْ منَ القراءةِ قالت لي:

«إنه من سِيرْ جوزيف بَنْكْس!.. لا بُدَّ أنك سمعْتَ

بالملازم « بلاي »، الذي رافق القبطانَ « كوك » في أول رحلةٍ له.. وقد أخبرني سِيرْ جوزيف أنّ الملازمَ يَقْضي الآنَ إجازةً عند أصدقاءَ له، يُقيمون على مَقْرُبَةٍ منّا، وأنه يُحِبُّ أن يزورَنا.. لقد كان والدك يُكِنُّ له كثيراً منَ الاحترام».

قلْتُ في دَهَشٍ:

« رافقَ القبطانَ كوك! ادعيه إذن، أرجوكِ!»

فابتسمتْ والدتي، وقالت:

« كنْتُ واثقةً من أنكَ ستكونُ مسروراً!»

لعلّي كنتُ أشدَّ إقبالاً على القراءةِ منَ الشّبّان الآخرينَ الذين في مثل سِنّي. وكان الكتابُ المُفَضَّلُ عندي هو كتابَ الرِّحْلاَتِ التي قام بها الدكتور « هوكثُورث » في بحَار الجَنُوب؛ وقد أهْدانيهِ والدي وأنا في العاشرةِ من عُمُري. لقدقرأْتُ أجزاءَه الثلاثةَ بشَغَفٍ بالغٍ ؛ كما قرأْتُ بالاهتمام نَفسه تلك القصةَ الفرنسيةَ التي تروي رحلاتِ السيد دي بوغنفيل. كانت هذه الكتاباتُ التي تَصِفُ الاستكشافاتِ في البِحَارِ الجُنُوبيّةِ، وتَصِفُ أخلاقَ السكان وعاداتِهم في جُزُرِ تاهيتي وأوهيهي (كما كانت تُدعى آنذاك)، كانتْ تُثيرُ فيَّ فُضُولاً لا يُمكِنُ أن يتخيَّلَه أحدٌ في هذه الأيام.

من أجلِ هذا كنْتُ في غايةِ الفرحِ عندما وصل السيدُ بلاي إلى دارِنا.

كان السيدُ بلاي في ذَرْوةِ الرُّجولة.. كان متوسطَ الطول، قويَّ البُنْيَةِ، ذا وجهٍ عريضٍ لَوَّحَتْهُ الشمسُ، وفمٍ يَنِمُّ عن إرادةٍ صُلْبةٍ. وكان يضع على رأسِه، الذي يكسُوهُ شعرٌ كثيفٌ وَخَطَهُ الشَّيْبُ، قُبَّعَةً سوداءَ مُثَلَّثَةً، مائلةً إلى جانب، ويرتدي ثوباً من الجُوخِ الأزرقِ الفاخر، « مُخَرَّجاً » باللون الأبيض، وعلى سُتْرَتِه، الطويلةِ أزرارٌ ذهبيَّةُ اللون. كان في مشيته ما يُنْبِىءُ بالتصميم والشجاعة، وفي عينيه السوداوين التماعٌ نادرٌ يَدُلُّ على ثِقَةٍ بالنفس لا حدودَ لها.

عندما استقبلْتُه، صافحني بحرارة، وقال وهو ينظُرُ إليَّ باسماً:

« إنك شبيهٌ بأبيك!.. يا له من رجل!.. لقد كان معروفاً لدى جميعِ البحارةِ.. على الأقلِّ بالاسم!»

على مائدة العَشَاءِ تَحدَّثَ السيد بلاي بكثيرٍ منَ الاحترامِ عن أعمالِ والدي بخصوصِ تحديدِ خطوطِ الطُّول. ثم تحوَّلَ الحديثُ وجهةً أخرى، فقال السيد بلاي:

« بعد أن خرجْتُ من البحرية الملكية، منذ أربعِ

سنواتٍ، عملت في البحرية التجارية. وقد أُسْنَد إليّ السيد «كمبل»، أحدُ تُجَّارِ «شركةِ الهندِ الشرقيّة»، قيادةَ سفينتِه «بريتانيكا». وخلالَ رحلاتي كان المزارعون والمسافرون يسألونني رأيي في «شجرة الخبز» التي تنبت في تاهيتي وأوهيهي. وقد رأى بعضُ التجارِ والمهتمِّين بشؤونِ الزراعةِ أنَّ هذه الشجرةَ تستطيع أن تُقَدِّمَ غذاءً وافراً وصِحِّيّاً للعبيد الزنوج، فتقدموا بطلبٍ إلى القصر بتخصيصِ سفينةٍ مناسبةٍ لنقلِ هذا النوعِ منَ الأشجارِ من تاهيتي إلى الهند الشرقية. وقد لاقَتِ الفكرةُ استحساناً كبيراً لدى سير جوزيف؛ فأيَّدها كلَّ التأييد. والأميراليةُ البريطانيةُ تعمل الآنَ على تجهيز سفينةٍ خاصّةٍ في وِسْعِها أن تؤدِّيَ هذه المُهِمَّةَ. ونزولاً على اقتراح سير جوزيف أعادتْني البحريّةُ الملكيّةُ إلى الخدمة، وكلّفتْني بقيادة هذهِ السفينةِ، وسنبدأ رِحْلَتَنا قبلَ نهايةِ العام».

قالت أمي:

«ليتني كنْتُ رجلاً، لأكونَ إلى جانبك في هذه الرِّحْلَةِ الشيِّقة؛ فلا بُدَّ أنكم تحتاجون إلى بستانيٍّ يُعْنَى بالْغِرَاس الصغيرة!»

فأجاب مبتسماً:

«لو كان لأمنيتك أن تتحقَّقَ لرحّبْتُ بك، يا سيدتي،

بكلِّ سرور، رغم أنهم زوَّدُوني بِعَالِمِ نباتٍ، هو دافيد نلسون، الذي كان يقوم بالمهمة نفسِها خلالَ آخرِ رحلةٍ للقبطان «كوك».. إنَّ سفينتي «باونتي» ستكون عبارةً عن بستانٍ عائمٍ، يحتوي على كافّةِ الأجهزةِ والمُعَدَّاتِ لصيانةِ الأغراس.. من ناحية أخرى، رجاني صديقُنا العزيزُ، سير جوزيف، أن أعملَ خلالَ إقامتي في تاهيتي، على دراسةِ أحوالِ السكانِ الوطنيين وعاداتِهم، وتسجيلِ ملاحظاتي على لغتهم، من حيث قواعِدُها ومفرداتُها، لاستكمال ما لدينا من معلوماتٍ في هذا المجال.. وفي رأيه أن تأليفَ قاموسٍ في هذه اللغة من شأنه أن يؤدِّيَ خدمةً جليلةً للبحارة الذين يجوبون البحار الجنوبية.. والحقيقةُ أنني غيرُ قادرٍ على جَمْعِ مثلِ هذا القاموسِ؛ كما أنّ معلوماتي في اللغةِ اليونانيةِ قليلةٌ!»

قلْتُ له:

«أيَّ طريقٍ ستسلُكون، يا سيدي؟.. طريقَ رأسِ هورن؟».

«سأحاول اتخاذَ هذا الخطِّ، قبلَ مَوْسِمِ الرياحِ الشرقيةِ. أمّا في العودة فسنتخذ طريقَ الهندِ الشرقيةِ ورأسَ الرجاءِ الصالح!»

وتركَتْنا أمّي في تلك اللحظةِ، فراح يسألُني عن مَدَى معرفتي في اللغاتِ، وهو يكسِر الجوزَ ويَحْتَسي من خَمْرَةِ «مادير». وبدا لي أنه اقتنع بمَقْدِرَتي في حقلِ اللغاتِ، فكَرَع كأسَه، وسألني جادّاً:

«هل يَسُرُّكَ أن تكونَ معنا، أيُّها الشابُّ؟»

الواقع أنني، منذ الكلمة الأولى التي تفوّه بها في هذا الموضوع، رُحْتُ أحلُم بالسعادة التي سأشعُر بها في رِحلةٍ كهذه. وتمَّ الاتفاقُ على أن أركبَ السفينةَ «باونتي» في «سبيتهيد».

ودّعْتُ والدتي وسافرْتُ إلى لندن، في شهرِ تِشْرِينَ الأولِ لأشتريَ الملابسَ الرسميَّةَ، وأزورَ سير جوزيف بنكس، رئيسَ الجمعيةِ الملكيةِ ورفيقَ القُبْطَانِ «كوك»، مستكشفِ اللبرادور وبحرِ الجنوبِ المُتَرامي.

أراني سير جوزيف نَسْخَةً منَ القاموسِ الصغيرِ للكلمات التاهيتيةِ التي جمعها هو والقبطانُ كوك. وقال لي:

– إن مجموعتي هذه صغيرةٌ وغيرُ سليمةٍ تماماً.. في استطاعتِكَ أن تُغيِّرَ طريقةَ الجمعِ الصوتيةَ التي اتّبَعْناها أنا وكوك؛ فمن الأسهل أن تسجّلَ الكلماتِ حَسْبَ النطقِ الإيطاليّ.. هل تعرِف اللغةَ الإيطالية؟

– أجل، يا سيدي!

– حسن! ستمكثُ عِدَّةَ أشهرٍ في تاهيتي إلى أن تنتهيَ عمليةُ جمعِ الغِرَاسِ؛ فاَعْكِفْ كُلِّيَّةً على هذا القاموس، الذي أرجو أن أَعْمَدَ إلى نَشرِه فَوْرَ عودتِكَ.. إن اللهجةَ التاهيتية منتشرةٌ في بحرِ الجَنُوبِ؛ ولهذا فإنّ قاموساً من هذا النوعِ، تضاف إليه بعضُ المعلوماتِ في القواعد، من شأنه أن يَسْتَرْعِيَ اهتمامَ البحارةِ في بحر الجنوب حيث يجب أن نوجِّهَ اهتمامَنا، خاصّةً بعد أن فَقَدْنا مستعمراتِنا الأميركيةَ.. في تاهيتي ستجد وجوهاً كثيرةً للَّهْوِ، فإيّاكَ أن تُضيِع وقتَكَ.. ثم إنه يَحْسُنُ بك، قبل أن تختارَ أصدقاءَ من بينِ الوطنيين، أن تدرُسَ الوضعَ السياسيَّ في البلاد، ليكونَ الصديقُ الذي تختارُه ممَّن يتمتَّعون بالاحترام والنفوذ!

ذهبتُ إلى «سبيتهيد»، للالتحاق بالباونتي، في أواخرِ تشرينَ الثاني.. كانت سفينتُنا تبدو بحجمِ الزورقِ بالنسبة إلى السفنِ الكبيرةِ التي تعمل على الخطّ، والتي كانت ترسو إلى جانبِها؛ فقد كان طولُها تسعين قدماً، وعَرْضُها أربعاً وعشرين؛ أما سَعَتُها فتزيد قليلاً عن مئتي بِرْمِيل. كان اسمُها «بيثيا»؛ ولكنَّ هذا الاسمَ غُطِّيَ بالدِّهَانِ، ورُسِمَ مكانَه اسمُ «باونتي»، نزولاً على اقتراح سير جوزيف

بنكس. وقد صرفتِ الأميراليةُ البريطانيةُ أكثرَ من أربعةِ آلافِ جُنَيهٍ استرلينيّ على تحويل السفينة، بحيث تُؤدّي المُهمَّةَ المطلوبةَ. مثالُ ذلك أن الحُجْرَةَ الخلفيّةَ جُهِّزتْ كبستانٍ؛ فوُضِعتْ على رفوفها الأُصُصُ العديدةُ، ومُدَّتِ الأنابيبُ لريِّ الغِراس. وعلى هذا الأساسِ نُقِلَ الملازمُ بلاي ومعاونُه، السيد فراير، إلى حُجْرَتَيْنِ صغيرتين تقومان على جانبي السُّلَّم الرئيسية، واضطرا إلى تناوُلِ الطعامِ في مكانٍ ضيّقٍ يُظِلُّه الجسرُ القائمُ بين صفِّ المدافعِ وخزّانِ المياه. كذلك كان جميعُ الرجالِ محصورين في أماكنَ ضيقةٍ، لأن السفينة، رغمَ صِغَرِها، كانت تنقُل حمولةً ثقيلةً منَ البضائعِ والسِّلَعِ لمبادلتِها مع التاهيتيين؛ لذلك كنتُ أسمعُ التذمُّرَ منَ الجميع، حتى قبلَ بداية الرِّحْلة.

كانت السفينة مُلَبَّسة بالنُّحاس، وهو تجديدٌ في ذلك الزمان؛ ولهذا كانت أشبهَ بسفينةٍ لصيد الحيتان منها بسفينةٍ مسلحةٍ من بحريةِ صاحبِ الجلالة. وكانت تحمل في المقدمة مِدفَعين خفيفين يُحشَيان بقذائفِ شظايا، وتحمِل في مُؤَخَّرَتِها ستةَ مدافعَ خفيفةٍ وأربعةً ضخمةً.

كان كلُّ شيءٍ يبدو لي جديداً وغريباً في ذلك الصباحِ الذي ذهبتُ فيه للقاء النقيب البحري بلاي. كان يسير أمامي، وأنا متوجّهٌ إلى حيث كان النقيبُ، رجلٌ فارعُ

الطولِ مُسْمَرُّ اللونِ. ولما وقع نظرُ بلاي عليَّ قال:

«أهذا أنتَ، يا سيد بايام؟!.. أُقَدِّم لك السيد كريسْتْيَان النقيبَ البحريَّ الثاني!.. سيَدُلُّك على حُجْرَتِكَ ويُطلِعُك على واجباتِك؛ بعد ذلك ستتناول معي طعامَ الغداءِ على ظهرِ السفينةِ «النَّمِرَة»، لأن قبطانَها، كورتني، كان صديقاً لوالدك، وقد طلب إليَّ أن أصطحبَك معي، عندما علم أنك على «الباونتي»!». وأضاف، وهو ينظر إلى ساعته الفضية الكبيرة: «كُنْ جاهزاً بعدَ ساعة!».

تبعتُ كريستيان إلى الحجرةِ الصغيرةِ، التي لم تكن مِساحَتُها تبلغ ثماني أقدامٍ في ستٍّ والتي كانت مخصصةً لأربعةِ رجالٍ. رأيتُ وأنا أدخُل فتًى يرتدي البِزَّةَ نفسَها التي أرتديها. وقدّمه إليّ كريستيان باسم هيوارد؛ فنظر إليّ الفتى بتَعالٍ، ومدَّ يدَه بفُتُور. ولما خرجنا قال لي كريستيان، وهو يبتسم:

«السيد هيوارد عمرُه سنتانِ في البحرية، ولهذا فهو ينظر إليك كَمُسْتَجِدٍّ عديمِ الخِبْرَة!»

كان محدّثي، فليتشتر كريستيان، من أولئك الناس الذين يسترعُون الانتباهَ. كان في الرابعةِ والعشرين من

عمره، وكان ذا قامةٍ مُتَّسِقَةٍ وبُنْيَانٍ متينٍ؛ كما كان في صوته ما يَنُمُّ عن أنه رجلٌ مثقفٌ. أما عيناه السوداوان العميقتان الملتمعتان فقد كانتا تنطويان على قوة مِغْناطيسية. كان أشبهَ بالإسبانيين منه بالإنكليز، رغم أن أُسْرَتَه قدِ استقرتْ في جزيرة «مان» منذُ القرنِ الخامسَ عشرَ. على أن مِزاجَه كان ينتقل منَ المرح إلى الكآبة السوداء. وقد كان في طبعه عُنْفٌ يحاول إخفاءَه بجهد.

كنا نقف، أنا وكريستيان، خلفَ الصاري الكبير عندما رأينا رجلاً مُسِنّاً يصعَد السلم، وهو يلهث. فأسَرَّ كريستيان في أذني:

«إنه السيد فراير، الضابطُ الثاني!»

وقال فراير:

«الطبيب.. أين الطبيب؟.. آه.. ها هو ذا!»

فتبِعْتُ نظرَه فإذا برجل، كلّل الشيبُ رأسَه، يظهر في السُّلَّم.

كان الطبيبُ ذا ساقٍ خشبيةٍ، وكان ذا وجهٍ مستطيلِ كوجهِ الحصان تكسوه حُمرةٌ داكنة تمتد على العُنُقِ الذي تحفره خطوطٌ كأنه عُنُقُ سُلَحْفَاةٍ. صاح وقد رفع بيدِه زجاجةَ كونياك نصفُها فارغٌ:

«هيه، يا سيد فزاير!.. هل رأيتَ خبيرَ النبات نلسون؟.. لقد وصفتُ له جرعةً من الكونياك من أجل الرُومَاتيزم الذي يشكو منه، وقد حان وقتُ الدواء!»

وبعد أن هزَّ الزجاجةَ مرةً أخرى اتجه نحو السُّلم، وتَبِعَه فراير.

ظَلَلْتُ وحدي، أنظُر إلى الصواري والحبال وما يُحيط بي، إلى أن جاء السيد بلاي. فجذّف البحارةُ حتى أصبحنا في مُحاذاة سفينة «النَّمِرَة». وما إن أصبحنا على ظهرها حتى وقف البحارةُ منتصبين، تحيةً للسيد بلاي. وتوجّهْنا إلى مُؤخَّر السفينة حيث كان ينتظر «كورتني»، الذي كانت تربطه صداقةٌ قديمة ببلاي.

كان القُبطانُ كورتني فارعَ الطول، مُتَّسِقَ القامةِ، يضع على عينيه نظارةً بلا ماسكتين. وقد استقبلَنا ببشاشة، وتوجه بنا إلى حجرته الخلفيةِ، التي كان يقف عندَ بابها حارسٌ باللباس الأحمر، يحمل بيده سيفاً مُجرَّداً من الغِمْدِ. وكانت هذه أولَ مرةٍ أزور فيها سفينةً حربية.

بعد أن تناولنا عدة كؤوس، نظر القبطانُ في ساعته وقال:

«أرجو أن تعذِّراني.. فهناك رجلٌ يجب أن يُنْزَلَ به

عِقابُ الجَلْد، وعليَّ أن أتلوَ نصَّ القانون!.. إذا كنتما ترغبان في شهود العملية، فما عليكما إلا أن تتوجها إلى المُؤخَّرَةِ!»

وقفنا على سطح المؤخَّرَةِ فرأينا مركباً قادماً من إحدى السفن.. كان يتحرك ببطءٍ على قَرْعِ طبلٍ فيه؛ وقد وقف عن جانبي الطبل طبيبُ السفينةِ والمدرِّبُ؛ وفي الخلف كان يبدو شكلُ رجلٍ مُمَدَّدٍ. وكان وراءَ المركب قاربٌ ملآنٌ بالبحارة، تتحرك مجاذيفُه متناغمةً مع قرع الطبل المُثير.

كان الرجلُ المربوطُ بحاراً متيناً، تتراوح سِنُّه بين الثلاثين والخامسةِ والثلاثين، وكان جذْعُه عارياً حتى رِبَاطِ السِّرْوَالِ الفضفاضِ المصنوعِ من قُماشِ القُلُوع. كانت يداه مربوطتين ربطاً شديداً بالدَّكَّةِ التي كان مَشْبُوحاً عليها. وكانت الدَّكَّةُ والسِّرْوَال وأرضُ الزورق جميعاً ملطخةً بالدم الأسود. وقد تعرَّتْ عظامُ الرجلِ في بعض الأماكن، وتدلَّتْ قطعٌ من لحمه كَسُيُورٍ سوداء.

كان القبطان كورتني يتمشى هادئاً على السطح؛ فألقى نَظْرَةً على ذلك المشهدِ البشع. واقترب جرّاحُ السفينة من البحارِ المَشْبُوح؛ وبعد أن فحصه أعلن للقبطان قائلاً:

«إنه مَيْتٌ يا سيدي!»

وسَرَتْ همهمةٌ بين البحارة المتجمعين.. قال القبطان:

«مَيْتٌ؟!.. إنه حسنُ الحظِّ، هذا النذل!.. أيها المدرّب! كم سَوطاً كان ينبغي أن يتلقّى؟»

فأجاب ضابط الصف، بعد أن وقف وقفةَ الانتباه:

«دزينتين يا سيدي!»

فعاد القبطان إلى مكانه بهدوءٍ، وتناول من يد نقيبه الأول نُسخةً من موادِّ القانونِ الحربيّ؛ ورفع، بحركة مسرحية، قبعتَه المثلثةَ؛ فحَسَر الجميعُ رؤوسَهم احتراماً لأوامر صاحب الجلالة. ومن ثَمَّ راح يقرأ المادّة الخاصّةَ بالعقوبة التي يجب إنزالُها بمن يعتدي على ضابط من ضباط صاحب الجلالة!

وكان هناك مساعدٌ يفتح كيساً أحمر، وهو ينظر إلى اتجاه الريح. فلما انتهى القائد من القراءة، أعاد قبعتَه إلى موضعِها، ورَمَقَ المساعدَ بنظرةٍ جامدة. فسُمِعَتْ همهمةٌ من البحارة، ما لَبِثَتْ أن توقّفَتْ فجأةً، عندما حوّل القائدُ نظرَه إليهم. وأصدر أمرَه إلى ضابط الصف قائلاً:

«قُمْ بواجبك!.. دزّينتان، أليس كذلك!»

لم أستطع تحويلَ نظري عن المساعد الذي كان يهبط

السلم ببطءٍ نحو الزورق. كانت النِّقمةُ مُرتسمةً على وجوه البحارة. وتردّد المساعدُ، ونظر إلى القائد كورتني، الذي كان يقف على السطح معقودَ الذراعين؛ فعاد هذا يقول له بلهجة من يريد أن ينتهيَ من هذه المُهمَّةِ، لأن غداءَه ينتظر:

«هيا! أدِّ واجبَك!»

وأشَحْتُ بوجهي، وقد أحسستُ بدُوَارٍ في رأسي، عندما همّ المساعد بجَلْد الجُثَّةِ المشبوحةِ بين يديه. أما بلاي فقد كان ينظر دون اكتراث، شأنَ من ألِف هذه المشاهدَ. ثم راحت الضَّرباتُ تتساقط برتابةٍ على جُثّة البحار الدامية. وتشقُّ الصمتَ المُطْبَقَ، إلى أن اكتملتْ أربعاً وعشرين.

عندما عُدْنَا إلى المائدة، بدا كورتني وكأنه نَسِيَ الحادثةَ تماماً. وكنتُ أنا صامتاً، أُوهمُ بأنني آكُلُ. وسأله بلاي:

«ماذا فعل هذا الرجل؟»

– من؟.. الذي جُلد؟.. كان بحاراً ممتازاً عندَ القائدِ أليسون، قائدِ سفينةِ «إنتربيبيد»، وقد هرب منَ الخِدمة. وذات يوم صادفه «أليسون»، وهو يخرج من أحد مقاهي بورتسموت؛ فحاول الهربَ، فأمسك به «أليسون»، فما كان منه إلا أن لكمه لكمةً على عينه كستها بالسواد. وصادف

بحار السفينة بونتي

مرورُ دورية من البحارة، فاعتقلته، وحدث ما حدث!

– إنّ القانونَ البحري عندنا قاسٍ، رغم أنه تطور مع الزمن، وأصبح أكثرَ إنسانيةً؛ فقد أُلغِيَ التعذيب « بالهُوِيِّ » (طريقة في التعذيب يُرْفَعُ فيها المُعاقَبُ إلى أعلى ثم يُتْرَكُ ليسقطَ على الأرض)، ولم يعد في إمكان القائد أن يحكُمَ على أحد بجّارته بالإعدام!

عدنا إلى « الباونتي » عند مُنتصَفِ الليل؛ وكان البحر في حالة الجَزْر؛ فرأيتُ عدداً من البحارة يحفِرون حُفْرةً على الشاطىء لِمُوَارَاةِ البحارِ الذي مات تحت التعذيب.

٢. في البحر

في الثامن والعشرين من تشرينَ الثاني توجّهت سفينتُنا إلى مرفأ « القديسة هيلانة ». ولكننا حُجزنا قُرَابَة شهر في هذا المرفأ وفي « سبيتهيد »، بسبب الرياح المعاكسة؛ ولم نستطع أن ندخل بحر المانش، برياحٍ مُوَاتيةٍ، إلا في الثالث والعشرين من كانونَ الأول.

كنا ستةَ شبانٍ تحتَ التدريب. وكان لي ولاثنين من أولئك الرفاق، هما جورج ستيوارت وإدوارد يونغ، أفضليةُ التدربِ على يديْ بْلاي. ولكن كلا الاثنين كانا

متفوقين عليّ. وكان يدربني، على أعمال البحر، المراقبُ السيد كول ومساعدُه جيمس موريسون. وكان كول نموذجَ البحارِ المحنّكِ.. كان واسعَ المعرفةِ في مهنته، قليلَ الكلام. أما موريسون، وهو أيضاً بحارٌ من الطِّرَازِ الأوّل، فقد كان من أسرةٍ كبيرةٍ؛ وكان يحمل عُصَيَّة هي عبارةٌ عن حبلٍ مجدول، لا يستخدمها إلا لحثِّ الكسالى، وإلا إذا دعاه « بلاي » لاستخدامها.

عند فجر ذلك اليوم – الثالثِ والعشرين من كانونَ الأول – كانت النجومُ لا تزال في السماء عندما انطلقْنا مستجيبين لصفارة المراقب وأوامرِ موريسون. كانت الريحُ مُجَلِّدةً. ولكن المناورةَ تَمّتْ بنجاحٍ، وما لَبِثَتِ السفينةُ أن أقلعتْ، مقتحمةً عُرض البحر كأنها حصانٌ أصيلٌ.

في تلك الليلةِ هبت الرياحُ عاصفة، وارتفعتِ الأمواجُ. ولكنَّ الصباحَ التالي كان أخفَّ حِدَّةً؛ وبذلك أتاح لنا فرصةَ الاحتفال بعيدِ الميلادِ. وقد وُزِّعَتْ كميةٌ إضافيةٌ من « الغْرُوغْ » (مشروب إنكليزي يُمْزَجُ بالماءِ الساخن) وكنتَ تسمعُ صفيرَ الطُّهَاةِ وهم يُعِدُّون « البودنغ ».. ولكنَّ صفيرَهم هذا لم يكن تعبيراً عن المَرَح، بل ليُثْبِتُوا أن الزبيب، الذي يستخدمونه، لا يتَّخِذُ طريقَهُ إلى أفواهِهم.

غداةَ الميلادِ فاجأتْنا عاصفةٌ ذهبتْ بكميةٍ كبيرةٍ من الجَعَةِ (البيرة) التي كنا ندّخرُها. كنتُ في حُجْرَةِ الطبيب، الذي كنا ندعوه باخوسَ العجوزَ لأنه مولعٌ بالخمرةِ، وكان معنا نلسون. وحجرة الطبيب ستُّ أقدامٍ في سبعٍ. كان السريرُ في جانبٍ، وفي الجانبِ الآخر أرجوحةُ النوم. ولم يكن الطبيبُ يستخدم السرير للنوم بل للجلوس. وكان الدرجُ الكبيرُ الذي تحتَ السرير يؤدّي دورَ القَبْو، إذ كان مملوءاً بالخمور. وكان في الجانب الآخر، تحتَ الأُرجُوحة ثلاثةُ براميلَ احتياطيةٍ صغيرةٍ من الخمرة، كنتُ أجلسُ على أحدها؛ وعلى الاخر كان شمْعدانٌ يرسل نوراً أزرق؛ وكان باخوس ونلسون جالسَيْن جنباً إلى جنبٍ على السرير. وكنت أحاول ألاّ أدعَ البرْميلَ يَزْحَلُ من تحتي. وفجأةً مالتِ السفينةُ بعنفٍ، تحتَ تأثير موجةٍ هائلةٍ ارتطمتْ بها. فصاح بي الطبيب:

«اصعد إلى فوقَ، يا بايام!»

وبينما كنت أنطلق عَبْرَ درجِ السُّلّم سمعتُ أصواتَ التحطيم وزمجرةَ البحر: لقد بثّتِ الموجةُ، التي تكسَّرَتْ على سفينتنا، ألوانَ الدّمَار في طريقها؛ فحطّمَتْ ثلاثة زوارقَ، وجرفتْ براميلَ الجَعَةِ وفاضت على الحجرة

الخلفيَّةِ، فتسربت المياهُ إلى الفُرْن وأتلفتْ مَؤُونَةَ الخبز التي كانت فيه.

عند درجه ٣٩ شماليْ خط الاستواء هدأتِ العاصفة. فاستطعنا أن نُشْرِع جميعَ قلوعنا؛ فمضتِ السفينةُ نحو «تينيريف»، تدفعها رياحٌ شَمالِيَّةٌ مُؤاتِيَةٌ.

ألقينا مراسينا في «سانتا كروز». حيثُ مكثْنا خمسة أيامٍ. خلالَ هذه المدةِ بدأتْ بذورُ النّقْمةِ تنتشر بين البحارة، تلك النقمةِ التي أدّتْ إلى فشل الرحلة والقضاءِ عليها. فقد ظللنا على مبْعَدةٍ من الشاطىء، نظراً لشدة ارتداد الأمواج عليه. لهذا اتفق القائدُ بلاي مع بعض المراكب في الميناء أن تنقل إلينا المياه والمؤن. أما رجالُ السفينةِ فقد احتفظ بهم للعمل ليلاً نهاراً لإصلاحِ ما أفسدتْهُ العاصفة. وقد أدّى هذا إلى بعض التذمّر بين البحارةِ الذين كانوا يُمَنّون النفس بالنزول إلى الميناء لشراء ما يريدون من الخمرةِ وسواها. وطوال إقامتنا أُوقف توزيعُ لحم البقر المملّح، واستُعيضَ عنه بلحمٍ بقريٍّ طَازجٍ، تبيّن أنه أسوأ منه بكثير. فتضايق الرجالُ وشَكَوْا أمرَهم إلى رئيس البحارة؛ فحمل هذا شكواهم إلى بلاي الذي استشاط غضباً، وأعلن أنه ليس أمامهم سوى أن يأكلوا من هذا اللحم أو يصوموا؛ فما كان من البحارة

إلا أن ألقوا ما وُزِّعَ عليهم في البحر.

وقسم بلاي الرجالَ إلى ثلاثِ مجموعاتٍ، وكلّف كريستيان بمهامّ النقيب، وجعله على رأس المجموعة الثالثة. لقد عَرَفَ كريستيان من سنينَ طويلةٍ؛ وكان يَعتَبِرُ نفسَه صديقاً له، وصاحبَ فضلٍ عليه. وكانت تلك الصداقةُ يُعَبِّرُ عنها أحياناً بدَعَواتٍ إلى تناول الطعام ، وأحياناً أخرى بُمُشَادَّاتٍ في غاية العنف. والحقيقةُ أن تكليف كريستيان بمهامّ النقيب من شأنه أن يخدمَه خدمةً كبيرة؛ إذ قد تُقِرُّ الأميراليةُ هذا الإجراءَ فترفع رتبتَه. وقد أغضبَ هذا التصرُّفُ فراير من بلاي ومن مرؤوسِه السابق على حدٍ سواءٍ.

كانت التغذيةُ، على السفن البريطانيةِ، رديئةً وغير كافية، مما أدّى إلى هرب عددٍ كبيرٍ من البحارة الإنكليز، ليعملوا على السفن الأميركيةِ. أما على السفينةِ باونتي فقد كانت أردأ بكثيرٍ مما هي عليه في السفن الأخرى؛ وكانت الأطعمةُ تُوزَّعُ بشُحٍ بالغٍ.

ولما لم يكن لدينا أمينُ حسابات على السفينة، فقد كان بلاي نفسُه يتولى هذه المُهمَّةَ، بمعاونةِ سكرتيرِه صموئيل، اليهودي الذي كان يعتقد البحارةُ أنه جاسوسٌ عليهم من قبَل القائد؛ ولهذا فقد كانوا يُبغضونه إلى أقصى حدٍّ.

وكان صموئيلُ هو المكلفَ بتوزيعِ المُؤَنِ على طباخي مختلفِ الموائدِ. كان يحوِّلُ إلى حجرةِ القائدِ أفضلَ الأشياءِ وبكمياتٍ وافرةٍ؛ أما بالنسبة إلى الباقين، فقد كان في غايةِ الشُّحِ ؛ والقطعة التي تزن ثلاثةَ أرطالٍ يعلن أن وزنَها أربعةٌ، ويسجلُها كذلك. مثل هذا التقتير يُوغِرُ في العادةِ صدورَ البحارةِ على قائدِهم. وقد وَقَعَ حادثٌ، عندما كانتِ السفينةُ لا تزال في نصف الكرةِ الشماليِّ، دَلَّ على أنّ بلاي لا يخلو من الدناءةِ في هذا المجال. فقد فُتِح برْميلُ جُبْنٍ فإذا به ناقصٌ قرصين؛ فاتهم بلاي البحارةَ بسَرقَتِهِ ووزّع عليهم الشتائمَ. حتى الضباطِ لم ينجوا من لسانه. ولكن أحدَ البحارةِ أكدّ، فيما بعد، أنه حمل بنفسِه هذين القرصين معَ أشياءَ أخرى إلى منزلِ بلاي.

ودُعِيتُ مرةً إلى مائدةِ القائدِ؛ وكان كريستيان وفراير حاضرين، ولكن الطبيبَ اعتذر. وأثناءَ تناوُلِ الطعامِ تحدث بلاي عن البحارةِ، فوصفهم بأحطِّ النعوتِ.. قال إنهم ثُفَالةُ الخمّاراتِ، وإنهم خنازيرُ كَسَالى. والتفتَ نحو فراير وسأله، وفمهُ ملآنُ بالأكلِ:

«ما اسمُ ذلك الحيوانِ الذي أَمَرْتُ بجَلْدِهِ أمسِ ؟»

فأجاب فراير، وقد صعد الدمُ إلى وجهه:

في البحر

بوركنت!

– أجل، بوركيت!.. يا له من وقحٍ!.. لدى أيِّ مخالفة مقبلة للنظام لن أكتفيَ بجلدِهِ دزينتين فقط، بل اثنتي عشرة!

وجاذف كريستيان بالقول إن من رأيه أن بوركيت لا يُقاد بالعنف بل بالرقة. فتهكم عليه بلاي، وقال إنه قليلُ الخِبرةِ بالرجالِ، وإن بحارةَ الباونتي، إذا لم يُؤخَذوا بالشدّة، يمكن أن يتحولوا، في عُرضِ البحر، إلى متمرّدين وقراصنةٍ.

وفهمتُ من النقاش الذي دار أن بلاي غيرُ محبوبٍ من أعوانه.

في «تينيريف» حَمَلْنا إلى السفينة كميةً كبيرةً من اليقْطين، الذي بدتْ عليه الان، تحتَ شمسِ المدارِ، علاماتُ الفسادِ. ولما كانت رؤوسُ اليقطينِ ضخمةً في أغلبِها، لا تصُحُّ لأن تُخصَّصَ لمائدةِ القائدِ وحدَه، فقد تلقى صموئيل الأمرَ بأن يقدِّمَها إلى البحارةِ بدلَ الخبز، بمعدّلِ رَطْلٍ واحدٍ مقابل رطلين اثنين من الخبز، فرأى الرجالُ أن المُقايَضةَ غيرُ عادلةٍ. فجمعَهم بلاي على الظَّهر، وأمر صموئيلَ بإخراجِ أوّلِ رجلٍ من كلِّ مائدةٍ، وعندها صاح بهم:

« والآن ليرفضْ أيٌّ منكم اليقطين، أو أيَّ شيءٍ آمُرُ به! قسماً، أيُّها الكلاب، لأُطْعِمَنّكُمُ الحشائشَ قبل أن أقضيَ عليكم!»

فأخذ كل منهم اليقطينَ الذي حُدِّد له؛ ولم يُسْتَثْنَ من ذلك الضباطُ أنفسُهم ..

على بُعْدِ نحوِ مئةِ فرسخٍ من السواحلِ البرازيليةِ واجهتِ «الباونتي» منطقةٌ ركودٍ، فتوقَّفَتْ؛ واستغلّ البحارةُ فترةَ التوقُّفِ هذه لصيدِ سمكِ القرْش. وقد جازفوا بجُزْءٍ من نصيبهم من لحمِ الخنزيرِ المملّحِ، أملاً في أن يحصَلوا على صيدٍ محترَمٍ. وبالفعل استطاع جون ميلز، رئيسُ المدفعيِّين، أن يصطادَ سمكةً يبلغ طولُها نحو عشرَ أقدام.

وقُطِّعتِ السمكةُ ووُزِّعَتْ. وفي تلك اللحظة أقبل صموئيل، وقال:

« يا له من صيدٍ عظيم!.. لا بدَّ أنّكَ ستعطيني قطعةً.. أليس كذلك؟!»

كان ميلز يبغض صموئيل من كلِّ قلبِه؛ فأجابه:

– بالطبع!.. ولكن عليك أن تعطيَني كأساً من «الغروغ» الجيدِ، إن كنتَ تريدُ أن تأكلَ سمكاً!

– دعْكَ من هذا، يا رجلُ!.. إنني أريد القطعةَ للقائد!

– ما دام الأمرُ كذلك فاصطدْ له سمكةَ قرش!

– إنك تفقد صوابَك، يا ميلز!.. هيا أعْطِني هذه الشريحةَ الكبيرةَ، إن كنتَ تريدُ ألاَّ أتكلَّمَ!

– ألاَّ تتكلمَ؟!.. خذْ!

وقذف قطعة السمكِ في وجهه، بقوةِ ساعدِهِ المتينِ المَوْشُومِ. فانقلبَ صموئيلَ على الأرض؛ ولكنّه نهض بهدوءٍ وأخذ الشريحة ومضى.

وانتشر الخبرُ بينَ البحارةِ، فأصبح ميلز للمرةِ الأولى ذا شعبيةٍ بين زملائه؛ ولكنْ لم يكن هناك أيُّ أملٍ في أن ينجو من العِقاب.

وكما كان منتظراً. قضى ميلز ليلته في القبود. وقد جمع رفاقُه على المائدةِ كلَّ نصيبهم من خمرة «الغروغ»، لكي يسقوه إياها ويُعينوه على تحمُّلِ الجلْدِ.

وحوالى السادسةِ والربعِ من صباحِ اليومِ التالي صعد بلاي إلى الطبقةِ العليا، وطلب من كريستيان دعوة جميع البحارةِ لشهودِ العِقاب. وكانت الباونتي تجري نحوَ الجَنُوب بعد أن عادت الرياحُ الشماليةُ الغربيةُ تَهُبُّ، ورُفِعَتْ جميعُ الأشرعةِ. قال القائد:

«جون ميلز! تقدم!»

فتقدم ميلز، وكان مُحْتَقنَ الوجهِ من كَثْرةِ ما تناول من «الروم». فقال له بلاي:

- هل لديك ما تقوله؟

- كلا. يا سيدي القائد.

- اخلعْ ملابسَك!

فخلع قميصَه وقذف به إلى أحدِ بحارته، وتقدم عاري الجذع. فقال القائدُ:

«اربُطوه!»

فتولّى ذلك العريفان نورتون ولنكلتر؛ وهما من البحارة القدامى، ولطالما قاما بتنفيذِ مثل هذه العمليات.

بعد ذلك حَسَرَ بلاي رأسَه وراح يقرأ، في قانون الحرب، ما نصّتْ عليه المادةُ الخاصّةُ بالتمرُّدِ من عقوبات. وبعد أن انتهى قال:

«ثلاثُ دزيناتٍ، يا سيد موريسون!.. أدِّ واجبك!»

كنتُ أخشى على موريسون، لأنني أعرف أنّه رجلٌ صُلْبٌ، وأنه يبغض السَّوْطَ، خاصة وأن هذا العِقابَ ليس بعادلٍ. ولكنه لم يستطعْ أن يَعْصِيَ أمرَ القائدِ.

لدى الصربة الأولى رنسم خطٌ على ظهر ميلز، والتمعتْ قطراتٌ من الدم؛ وقد أنَّ ميلز رغمَ عنفوانه. وتحمَّلَ الدزينةَ الأولى دونَ أن يصرُخ، رغم أن ظهره قد اكتسى بالدماء من الرقبة حتى الخاصرتين. وفي الجلْدةِ الثالثةَ عَشْرَةَ بدأ الرجلُ يصيح. فقال القائدُ الذي كان يعقّد ذراعيه على صدره:

«إياك أن تتهاونَ، يا سيد موريسون!»

فنظف موريسون بأصابعِه سُيُورَ السَّوْط من الدم، ونزع قطع اللحمِ العالقة بها، وتابع الضرب. ولما انتهى كان ميلز قد فقد الوعي، وأصبح وجهُهُ أسود. فحضر الطبيبُ وأمر بحملِه إلى العيادة لبغسل له جراحه بالماءِ المالح.

في أوائلِ آذار أُمِرْنا بأن نرتدي ملابس مُدفِئَةً لأننا سندور حول رأس «هورن» كذلك أُبدلتِ الأشرعةُ المربعةُ بأشرعةٍ جديدةٍ، وتُمّتْ بعضُ الاستعداداتِ لمواجهةِ الرياح الشديدةِ والأمواجِ العاتيةِ في تلك المِنْطقة.

قضينا عديدَ الأيامِ والليالي في حالٍ شديدةٍ من البؤس. فأحياناً كانت تنفخ الرياحُ الجنوبيةُ الغربيةُ. تصحبُها زخّاتٌ من الثلج، فتُضْطَرُّنا إلى الاختباءِ في يسَارِ السفينةِ؛ وأحياناً أخرى تصدُمُنا الزوابعُ بعنفِ

الآعاصيرِ. وقد انزاح عِبءٌ كبيرٌ عن صدورِ البحارةِ. عندما تنازل القائدُ عن تصلُّبه، وأمر بالاتجاه نحوَ رأسِ الرجاءِ الصالح . وكان من أثَرِ الطقسِ الجميلِ، الذي تلا انتقالَنا السريعَ نحو الشرق، أن ارتفعتْ معنويَّاتُ الرجال. وفي رأس هورن أمسكْنا عدداً كبيراً من الطيور البحريةِ، وضعنا قسماً منها في أقفاصٍ صَنَعَها نجارُ السفينةِ. وقد أفاد هذا الغذاءُ الطَارِحُ مرضانا ومُصابينا فائدةً جمّةً.

ولكنْ، مَعَ عودةِ الهدوءِ، عادتِ التأديباتُ تنصبُّ على رؤوسِنا، فلم ينجُ منها أحدٌ. وقد أُنزل عِقابُ الصاري الكبير (يُرْبطُ المُعاقَبُ في أعلى الصاري)، ذاتَ ليلةٍ من تلك الليالي الجليديّةِ، بالفتى تنكلر المحبوبِ من الجميع؛ وكاد يلاقي حتفَه، مما أثار كلّ البحارةِ. والسببُ في ذلك أننا، أنا وهَلت وهوارد وتنكلر، كنا نسمرْ بعد إطفاءِ الأنوارِ. فأقبلتِ الدوريةُ: فما كان منا إلا أن سارعْنا إلى الرُقادِ والشخيرِ بعد أن أطفأْنا المصباحَ. إلاّ أن تنكلر لم يستطعْ أن يخلع سترَتَه وحذاءَه، فاكتُشِفَ أمرُه.

في ٢٣ نَيْسانَ ألقينا المراسي في خليج « فولس »، قرب مدينةِ الكاب. كان علينا أن « نُقَنْفِطَ » سفينتَنا في أماكنَ عديدةٍ ونصلحَ ما أصابها من عطبٍ أثناءَ مرورنا برأس هورن. وفي ٢٩ حَزيرانَ أقلعْنا من الخليجِ متوجهين إلى

« أرض فان ديمن ». وقد ظلْلنا أياماً تدفعنا الرياحُ الغربيةُ الشديدةُ؛ وعندما كنا نقترب من الشاطئِ كانت تلاقينا أمواجٌ بارتفاع الجبال. وقد هبَّتْ علينا عاصفتان أوشكتا أن تقضيا علينا. وفي العشرين من آبَ رأينا الصخرةَ التي يُطْلَقُ عليها اسم « ميوستون »، والتي تقعُ بالقربِ من الرأس الجنوبيِّ الغربيِّ « لديمن ». وبعد يومين ألقينا المراسيَ في خليجِ « المغامرةِ »، حيث مكثْنا خمسة عشر يوماً للتزوُّدِ بالأخشاب. هذه الأيامُ الخمسةَ عشَرَ قضاها « بورسيل »، نجارُ السفينةِ، في الأغلال لأنه خالف أمرَ بلاي، فاختار الأشجارَ المناسبةَ، دونَ الأشجار الكبيرةِ الرديئةِ الخشب، التي عيَّنها القائدُ. كما أن « نيد يونغ » رُبِطَ بأحد المدافعِ، وتلقَّى أربعاً وعشرين جلدةً.

وقد كان لهذه العقوبةِ آثارٌ عميقةٌ؛ لأن « يونغ » ضابطٌ. ولم تجرِ العادةُ في البحريةِ الملكيةِ بجلد الضباط. ولهذا نفذ موريسون الأمرَ بامتعاضٍ ظاهرٍ. وبعد هذه الحادثةِ أصبح يونغ رجلاً آخر، إذ كان يؤدّي عملَه في صمتٍ واكتئابٍ، ويتفادى مواجهةَ مرؤوسيه. كذلك تلقى « سكينر »، البحّارُ المتمرِّدُ، دزينتين، وسُلِخَ ظهرُه.

وخلال هذه المدة كان بلاي ومساعدُه فراير لا يكلمان بعضَهما إلا في النادر؛ ذلك أن فراير كان يتهم القائدَ بأنه

ملأ جيوبَه خلالَ تزويدِ السفينةِ بالمُؤَن.

في الرابعِ من أيلول غادرْنا خليجَ المغامرة، وبعدَ ثلاثةِ أسابيع، قضيناها في الجوع والمرض، إذ انتشر بيننا وباءُ «الحَضَر» (مرضٌ يُفسِدُ الدمَ)، طالعتْنا أولُ جزيرةٍ من جُزْرِ الجنوب.

كان ذلك بعد الظهر، وقد جلستُ أنظر إلى الهدايا التي حملنُها للمبادلةِ، عملاً بنصيحة سير جوزيف. فسمعتُ مُشادَّةً عنيفةً بين القائدِ ومساعدِه. فقد طلب بلاي إلى فراير أن يوقِّعَ السِّجِلّ الذي وضعه صموئيل؛ ولما رفضَ فراير التوقيعَ لأن كميةَ اللحم التي وُزِّعت، حسب السِّجِلّ، على البحارةِ غيرُ صحيحةٍ، استشاط بلاي غضباً؛ وصرخ على كريستيان أن يجمع الرجال؛ فلما اجتمعوا عاد يطلب إلى فراير التوقيع. فوقع هذا بعد أن أعلن أنه إنما يوقّع احتراماً للنظام؛ ولكنَّ هذا الأمرَ له ما بعدَه. في تلك اللحظة صاح المراقبُ: «اليابسةُ! اليابسةُ!»

٣ . تاهيتي

كانت الجزيرةُ، التي ظهرتْ كنقطةٍ عندَ الأُفُقِ، هي جزيرةَ «ميهاتيا»، وهي جزيرةٌ جبليةٌ صغيرةٌ تقع جنوبَ شرقِ تاهيتي. وقد سكنت الريحُ عندَ غروب الشمس.

فظل البحارةُ يَجْهَدُون طولَ الليل لإدراكِ اليابسةِ. وبتُّ أنا، أرقُبُ ظهورَ الفجرِ دونَ أن يَغْمَضَ لي جَفْنٌ. ولقد أنستني روعةُ الشروق كلَّ ما عانيناه من آلامٍ خلال الرِّحْلَةِ. اقتربنا من الشاطىءِ فبدتْ لنا أشجارُ جوزِ الهند المشوقةُ، وأكواخُ السكانِ المنطويةُ بينَ الغاباتِ. كانت القريةُ في الجُزْءِ الجنوبيِّ، تليها مساحةٌ من الأرض الزراعيةِ، ثم تنهض بعدها المرتفعاتُ المكسوّةُ بالخُضْرَة. كانت أمامَنا لوحةٌ ساحرةٌ حقاً؛ فالجزيرةُ بألوانِها المختلفةِ، ونباتاتها المداريَّة الغنَّةِ كانت أشبهَ بجنةٍ تقع عليها العينُ الأولى. كان الأهالي، الذين يتابعوننا فوق رابيةٍ على الشاطىء، بعيدين عنا بحيثُ لا يمكن تمييزهُم. ولكنهم كانوا طوالاً؛ وكانوا لا يستُرُون سوى وسطهم بنسيجٍ أبيض.

وبينما كنا ندور حولَ الرأسِ الشماليّ للجزيرة، ناداني سميث، وقال، مشيراً إلى الأُفُقِ:

«أنظر، يا بايام!»

فنظرتُ فإذا بي أرى، على مسافةٍ، هيكلَ كتلةٍ من الجبالِ المرتفعةِ تبدو وكأنها نابعةٌ من البحر. كانت تلك جزيرةَ تاهيتي. كان القائدُ بلاي، في ذلك الصباحِ، رائق

المَزَاجِ ، على نَحْوٍ لم يَسْبِقْ أن رأيتَه فيه. وردّ تحيتي وهو يرْبُتُ كتفي قائلاً:

« ها نحن قد وصلنا، أيُّها الشابُّ! لقد كانت الرحلةُ طويلةً متعبةً، ولكنْ ها هي ذي تاهيتي أخيراً! »

قلتُ: إنها لتبدو جميلةً!

– طبعاً! طبعاً! ليس في الكون جزيرةٌ أجملُ منها!

والواقع أنني طوّفْتُ كثيراً بعد ذلك اليومِ .. سافرتُ عبْرَ جميعِ البحارِ ورأيتُ مختلفَ الجزرِ، بما فيها جزُرُ الهندِ والأرخبيلُ الأسيوي، فلم أرَ جزيرةً بمثلِ سحرِها.

كنا نتقدم في محاذاة الشاطىءِ الشرقيِّ، وهو الجزءُ الأغنى من الجزيرةِ. وكانت هناك صخورٌ منَ المُرْجَانِ تبعُدُ نحو ميلٍ عن الشاطىء، وتؤلّف حاجزاً دونَ الأمواجِ ، فيروح السكانُ ويجيئون بقواربِهم في تلك المياهِ الهادئةِ. ووراءَ الشاطىء الرمليِّ، كان يمتدُّ شريطٌ ضيقٌ من الأرض تنتشر فيه مساكنُ القَرَوِيِّين، بشكلٍ رائعٍ ، ضائعةً بين نباتاتِ القُطْن، وفي ظل غاباتِ الجوز الهنديِّ و« أشجار الخبز ». وفي خلفيَّةِ تلك اللوحةِ تتسامقُ جبالٌ، أشبهُ بالأبراجِ المُرَوَّسة، بينها أوديةٌ سحيقةٌ. ومن هذه الجبالِ تنحدر شلّالاتٌ، يصل ارتفاعُ بعضِها إلى أكثر

من ألفِ قدمٍ ، وتبدو من بعيد وكأنها حبالٌ منَ الفضةِ على أرضيَّةٍ بلونِ الزُّمُرُّدِ.

قال لي نلسون وهو يُشير إلى ممر بين الصخور الشاطئية:

« إنني أعرف جيداً هذا الجزءَ من الجزيرة.. إن تاهيتي، كما ترى، مؤلفةٌ من جزيرتين مرتفعتين، توحّد بينهما الأراضي المنخفضةُ حولَ المضيق، الذي يُسمِّيه السكانُ الوطنيون « تارافاوو ». هذه الجزيرةُ، التي أمامنا، هي الصغرى؛ وتُدعى « تايارابو » أو « تاهيتي – إيتي »؛ أما التي بعدَها، وهي الكبرى، فتُدعى « تاهيتي – نُويْ ». ومَلِكُ الجزيرةِ الصغرى يُدعى « فهياتوا »، وهو أعظمُ الأمراءِ التاهيتيين، ومنْطَقَتُه أغنى المناطقِ وأكثرُها سكاناً! »

ظلتِ السفينةُ تجري بنا طوالَ اليومِ قُبالةَ اليابسةِ. وقُبَيْلَ الغروبِ سكنتِ الأنسامُ الهابّةُ في اتجاهِ الجزيرةِ، ورُحنا نُحاذي صخورَ « تباري » التي تنتهي عندَ قدمِ الجبلِ الذي ينهض فوق الشاطىء الصخريِّ، والذي تتلاطم تحتَه الأمواج.

ألقتِ الباونتي مراسيها على نحوِ فَرْسَخٍ من مَصَبِّ نهر

« بابينو »، في المياهِ الهادئةِ. وكانتِ الأنسامُ تهبُّ علينا من ناحية الجزيرة، طوال الليلِ، الذي لم نَنمْ فيه إلا قليلاً، حاملةً معها رائحةَ الأرض والنباتاتِ الزكيةَ.

في الصباح كانت تتوجّه نحونا مجموعةٌ من الزوارق « الجذْعيّة » (المصنوعةِ من جذوعِ أشجارٍ مُجوَّفةٍ). كان معظمُ زائرينا من الرجال الطوالِ القامةِ. النحاسيِّ اللون. وكانوا يرتدون مآزرَ من النسيج الوطني، وقد أرخوا على أكتافهم دِثاراً ذا سَجَفٍ مربوطاً حولَ العنق. ولكن بعضهم كانوا يكشفون الجزء الأعلى حتى الخاصرتين، فتبدو لهم صدورٌ كصدور العمالقة. وكان منهم من يلفُّ حول رأسه عِمَامةً من القماش القاتم، ومنهم من يَعْتَمِرُ قَلَنْسُوَةً من ورقِ جوز الهند الذي قُطفَ حديثاً، وتدعى « التوماتا ». وكانوا عندما يبتسمون - ويحدث هذا في كل لحظة - يكشفون عن أسنان نَضيدَةٍ تُلفت النظرَ بنصاعة بياضها وشدة اتساقها. أما النساء القليلات اللواتي جئن معهم فقد كنّ قصيراتٍ جداً بالنسبة إلىّ الرجال، وكن يرتدين ملابسَ أشبهَ بالملابس اليونانية القديمة، كاشفاتٍ عن ذراع واحدة. كانت في وجوههن اللطيفة الباسمة فرحةُ الحياة؛ وكنّ يتميزن بكل ما يمكن أن تتميزَ به المرأةُ من جاذبية أنثوية: وهذا ما يفسر ولع أغلب البحرة بهن.

دعاني القائد بلاي وقال لي:

« سيد بديم! قد نمكث هنا عدة أشهرٍ. ريثما ينتهي السيد نلسون من جمع الغِرَاس. وأنا أنوي أن أعفيَك من مهامِّك على ظهر السفينة، كيما تتفرغ للعمل الذي كلفك به صديقي العزيز، سير جوزيف بنكس. وقد فكرتْ في هذا الموضوع، فرأيتُ أن الانسبَ لعملك هو أن تعيشَ في الجزيرة بين السكان الوطنيين. والأمر يتوقف الان على اختيارك الصديقَ - أو التايو - المناسبَ. وأنا أنصحك بألا تتسرع في اختيار هذا الصديق؛ لأن الناس المحترمين متحفِّظون عادةً، سواء هنا، في تاهيتي، أو في أيِّ مكانٍ آخرَ.. وعندما ترتاح إلى أسرةٍ تحب أن تسكن معها، أخبرني بذلك، لأقومَ بتحريتي عنها، بعد ذلك أطلعْني أسبوعياً على سير دراستك! »

ركبت مع الزائرين، ونزلت على شاطىء الجزيرة. حيث كان ينتظر عددٌ كبير من السكان. وما لبثتُ أن رأيت نفسي محاطاً من كل جانب، حتى لقد أوشكتُ أن أختنقَ. ولكن الجميع كانوا في غاية اللطف والتهذيب؛ وكان كل واحد منهمْ يشير لي مرحِّباً بمقدمي. وهدأت تلك الضجة العجيبة بصورة فجائية كما بدأت. وتراجع الناس ليُفسحوا الطريقَ أمام رجل متوسطِ السنِّ حسن السَّمْتِ،

تقدم مني بهدوء وثقة. كان الرجل حليقاً بعكس الآخرين الذين كانت لهم لحىً صغيرةٌ. وقد جذبني وجهُه الذي تَقْرأ فيه الصراحةَ والإرادةَ وروحَ السُّخَر. ويبدو أنه كان ذا مستوى أعلى من الآخرين، الذين عبّروا عن احترامهم له بذلك التراجع. شد الرجل على يدي بحرارة، ثم أمسك بكلتا كتفيّ وقرّب أنفه من خَدَّيَّ وشمني خمسَ أو ستَ مراتٍ. فوقفت صامتاً لا أتحرك، وقد فوجئت بهذا النوع الجديدِ من التحية. وسَرَتْ في الجمع همهمةُ استحسان. ولما أطلقني الرجل تراجع خطوةً وقال:

«أنا هيتيهيتي.. أنت طالب بحري، ما اسم؟»

قلت بعد لحظة، وقد صعقتني هذه الإنكليزية:

«بايام!»

– بايام! بايام! قال هذا وهو يهزُّ رأسَه بينما كان يتردد اسمي في الجمع: بايام! بايام! بايام!

وقادني إلى حظيرةٍ قَرَويّةٍ، كان عددٌ مِنَ النساءِ يَجْدِلْن فيها حُصُراً من القَشّ. وهناك قُدِّمتْ إليّ خمرةٌ في قشْرَةِ جوزةِ هندٍ. ثم بَسَطَتْ بعضُ الفتياتِ ورقةَ جوز هندٍ كبيرةً أمامي، ووضعن عليها موزاً ونوعاً أو نوعين من الفواكه التي لم يسبقْ لي أن رأيتها.

ثم أقبل القائد بلاي؛ فأسرع هيتيهيتي لاستقباله بحفاوة بالغة، لأن معرفته به ترجع إلى عَشْر سنوات. وسأله عن القائد كوك، وعما إذا كان سيزور تاهيتي، فقال له بلاي:

«من؟ والدي؟!»

– القائد كوك والدك؟

– طبعاً!

وظل هيتيهيتي لحظاتٍ صامتاً، وقد بدا الدّهَشُ عليه؛ ثم التفتَ إلى الجمعِ المحتشدِ وراح يخطب فيهم بلغةٍ لا أفهمها ولا بدَّ أنه كان يُخبرُهم أن بلاي هو ابنُ كوك الذي يعظّمه سكانُ الجزيرة. وقال لي بلاي إنه حذّر جميعَ البحارةِ من إخبار التاهيتيين بموت كوك. وقلت لبلاي إن هيتيهيتي قد اتخذني صديقاً له؛ فسُرَّ لذلك، وأنبأني أن الرجلَ ذو نفوذٍ عظيمٍ في قومه. وبعد أن أنهى هيتيهيتي خطابه قال له بلاي:

هيتيهيتي! إن السيد بايام هو إبن أحدِ الزعماءِ في بلده. . وقد حمل لكم بعضَ الهدايا؛ فأطلب منك،لقاء هذا، أن تُؤْويَه في دارك، مدةَ بقائنا في الجزيرة. إنه يريد أن يَدْرُسَ لغتَكم، ليتمكن البحارةُ الإنكليز، في

المستقبل، من التفاهُمِ مَعَ شعبِكم!

فالتفت إليّ هيتيهيتي، ومدّ يدَه الضخمةَ ليصافحَني تأكيداً لعقد الصداقة بيننا. وبتُّ تلك الليلةَ في منزل هينبهبتي - تي - آتوا - إيْري - هو، الكاهن الأكبر لمعبد « فاريروا ».

بالرغم من أن مضيفي لا يتعدّى الخامسةَ والأربعين، فقد كان جدّاً لعددٍ وافرٍ من الأحفادِ. فبعدَ ظهرِ اليوم الذي وصلنا فيه قُمنا، أنا وهيتيهيتي بنزهةٍ. ولدى اقترابنا من المنزل سمعتُ ضجةَ أطفالٍ لذيذةً، ورأيت نحو إثني عَشَرَ طفلاً يجرون نحو مضيفي. فلما رأوني توقفوا قليلاً، ثم أقبلوا يتعلّقون بجدّهم. وقبل أن نصلَ إلى باب الدار كان الزعيمُ قد أركبَ طفلين على كتفيه، بينما أخذتْ يدِي كبيرةُ الأحفادِ.

كان المنزل يبلغ نحو ستين قدماً طولاً وعشرين عرضاً. وكان سقفُه ذا شكلٍ بيضويّ. ومثلُ هذه المنازل لا تكون إلا للزعماء في الجزيرة. كان طرفاه، القائمان على أعمدة من خشب جوز الهند المصقول مفتوحين. أما الجانبان الآخران فقد شدّا بأعواد الخيزران المرتبة بالطول، والتي يتخللها الهواء.

تاهتي

واستقبلتنا عند الباب إبنةُ هيتيهيتي وأمُّ الأولاد؛ وهي إمرأة في الخامسة والعشرين لها وجهٌ ومشيةٌ مهيبان. وبَشَرَةٌ بلون الذهب الشاحب. وقدمها إليّ والدُها باسم « هنـ » وأفهمها من أنا. فتقدمتْ مني باسمةً، وصافحتني ثم أمسكتْ كتفيّ وشمّتْ خديّ؛ فرددْتُ لها التحية بمثلها؛ وللمرة الأولى شَمَمْتُ رائحةَ زيتِ جوز الهند المعطَّر، الذي تَدّهِنُ به نساءُ تاهيتي. قد لا توجد امرأةٌ في العالم – حتى النساءُ اللواتي يتحكمن بأساليب الأناقة في أوربا – تعتني بنفسها مثلَ نساءِ الطبقةِ المُسيْطِرة في تاهيتي.

ولدى نداء «صديقي» خرجتْ إلينا فتاة رائعة الحسن، وحيّتني بالطريقة نفسها: وكانت تلك «ميميتي» إبنةَ أخي مضيفي، التي تبلغ السابعةَ عَشْرَةَ من العمر.

والعجيبُ أن النساءَ في تاهيتي، رغمَ ما يتمتعْنَ به من الحرية وما يُوَجَّهُ إليهنَّ من العنايةِ والرعايةِ والتدليلِ، لم يكُنْ يُسمَح لهنَّ بدخولِ معابدِ الآلهةِ العظامِ، ولا بتناولِ الطعامِ مَعَ الرجالِ.

بدأت مرحلةٌ جديدةٌ من حياتي تركتْ لي ذكرياتٍ جميلةً سعيدةً. ففي صبيحةَ اليوم التالي لوصولي نهضنا مع

الفجر، وذهبنا لنسبحَ في النهر الذي لم يكن بعيدا عن المنزل. وقد أصبح هذا هو نظامَنا اليومي. بعد رياضة النهر كنا نتناول فطورَنا من الفاكهة؛ ثم يعكف كل منا على عمله الخاصّ، إلى حين عودةِ الزوارق من الصيد. وكنت أتركهم خلال إعداد الغداء وأذهب إلى البحر لأسبح حتى الجزيرة الصغيرة، أو بين صخور الشاطئ. بعد الغداء يقضي الجميع فترةَ القَيلولةِ في النوم. وعند العصر كنت أرافقهم في النُّزُهَات أو الزيارات.

في أثناء الرحلة درست مُعْجَمَ الدكتور جونسون، واهتممت بتحديد الكلمات التي تُستخدم عادةً في الأحاديث اليومية. وقد أحصيتها سبعةَ آلاف. والآن أصبح عليّ أن أجدَ الكلماتِ التاهيتيةَ التي تقابلها. والحقيقة أن اللغةَ التاهيتيةَ جذبتني منذ البداية. وبمعاونة صديقي وابنتِه والفتاةِ ميميتي أحرزتُ تقدماً سريعاً، وأصبحتُ، خلال مدةٍ وجيزةٍ، قادراً على إلقاء الأسئلة البسيطة، وعلى فهم الإجابة عليها. وتتميز هذه اللغةُ الغريبةُ الجميلةُ، بغناها في المفردات التي تعبر عن أوصاف الطبيعة وخَلَجَاتِ النفس الإنسانية، حتى لكأنها يونانيةُ هوميروس. كذلك هي تمتاز بدقة لا تتوفر في اللغة الانكليزية؛ فالخوف من التأنيب يُعَبَّر عنه بكلمة

«ماتو» والخوف من سمكة قرشٍ أو من قاتلٍ تقابله كلمةُ «ريباريا»، والخوف من الأشباح له كلمة أخرى وهكذا...

كنت كل أحدٍ أرتب مخطوطاتي وأذهب بها إلى الباونتي لعرضها على القائد بلاي، الذي كان يهتم بعملي إلى حد بعيد. وعلى أثر وصولنا أَمَرَ بلاي بإقامة سُرَادِق كبيرٍ على الشاطىء مقابل السفينة لجمع النصوب فيه. وقد أقام السيد نلسون ومساعدُه براون البستاني، وسعةً من الرجال على الشاطىء، وصاروا يفتشون عن الأغراس ويزرعونها في أُصُصٍ.

كان قد مضى على وجودي في الجزيرة نحو خمسةَ عشرَ يوماً عندما زارني، ذاتَ صباحٍ، بعضُ الرفاقِ. كنت على الشاطىء مع هينا وميميتي وزوجِ هينا، وهو زعيمٌ شابٌ يدعى «تواتو». رأيتُ في الزورق أولاً كريستيان وبيكوفر! وَلَكَمْ كان عجبي عظيماً عندما ميّزت قُبالتَهما باخوس العجوزَ. وصاح الطبيبُ المَرِحُ:

«لأَكُنْ ملعوناً إن كنت ظننت أنك من غير السكان المحليين!» والواقع أنني كنت ارتدي الملابسَ التاهيتيةَ. وقد حمل باخوس معه اثنتي عَشْرَةَ زجاجةً من نبيذ «تينيريف». وما استقرّ بنا المُقامُ على الحُصُر في

شُرْفَةِ المنزل حتى عكف الطبيبُ وبيكوفر وتواتو على احتساءِ النبيذِ. أما أنا وكريستيان فقد ذهبنا إلى الشاطىء وفي صحبتنا ميميتي وهيد.

واختفتِ الشابتان بين الأشجار، ثم خرجتا وهما ترتديان وزرتين من نوع المشمع. ورأيت كريستيان وقد ارتسم جسدُه المتّسقُ المفتولُ على الأفق، ينظر إليهما ويهمس لنفسه: «يا إلهي!»

وتوقفت ميميتي الفاتنةُ لحظةً وهي تضع يدها على كَتِف رفيقتها. ثم انطلقت إلى جذْع شجرةٍ ضخم يتدلّى فوق اللجّة، وقفزت من فوقه إلى الماء الذي يبلغ عمقه مقدار قامتين. وتبعها كريستيان، الذي كان ماهراً في السباحه.

وعند العودة كان كريستيان يسير هو وميميتي خلفنا ويدُها في يده.

٤ - كريستيان وبلاي

منذ أن تعرَّفَ كريستيان بميميتي لم يترك فرصةً تمرُّ دون أن يقومَ بزيارتنا. كان يأتي في الليل أو النهار حسبما يسمح له عمله على السفينة. والدهينون يحبون السهر.

ويعوِّضون ما فاتهم من النوم أثناء النهار. وهم على استعداد لإعداد الطعام حتى في منتصَفِ الليل. وسرعان ما أصبح كريستيان مندمجاً في الأسرة، على أساس أنه الحبيبُ المُعْلَنُ لميميتي. وكان يأتي في الغالب وهو يحمل هديةً للأسرة، التي كانت تعرف مكانتَه في البحرية. وتنتظر زيارتَه وتتلقاه، بمنتهى الفرح.

لقد أصبح كريستيان الآن باديَ المرحِ والسعادةِ، يُعامِلُ رفاقَه بانفتاحٍ ورِقَّةٍ بالغيْن، بعد أن كان في الماضي منطوياً على نفسه، دائمَ الصَّمْتِ والاكتئاب.

وذاتَ ليلةٍ صحوت على يد تهُزُّني. ولما فتحتُ عينيّ رأيت كريستيان وفي جانبه صديقتُه. قال لي:

« تعالَ إلى الشاطىء، يا بايام، فقد أشعلنا ناراً هناك.. عندي كلامٌ أوَدُّ أن أقولَه لك! »

فتبعتهما، وأنا أعرك عينيّ، إلى حيث كانتِ النارُ تشتعل وتُضِيءُ الليلَ. وجلس كريستيان مستنداً إلى جِذْعِ شجرةٍ من أشجار جوز الهند، وصديقتُه إلى جانبه، بينما اضطجعتُ، أنا، قربَهما. وقد رأيت أن طلاقةَ الأسابيعِ الماضيةِ قد اختفت من وجهه، وحل محلَّها التجهُّمُ القديمُ. وبعد صمت طويل قال لي:

« كنت أريد أن أخبرَك أن باخوس العجوزَ قد توفي هذه الليلةَ! »

فصِحْتُ:

« يا إلَهي!.. ماذا تقول؟ »

ا« ولا تظنَّ أنه مات من الخمرة، بل لقد مات متسمِّماً!.. لقد اشترينا خمسين رطلاً من السمك، الذي كان بينه نوعٌ أحمرُ براقٌ. وقد أُعِدّ جُزْءٌ من هذا السمك للعشاء. وكان من نتيجة ذلك أن أشرف هيوارد ونلسون وموريسون على الهَلاَك، ولكنهم نجوا؛ أما الطبيبُ فقد قضى نَحْبَهُ! »

وبينما كان يروي الحادثةَ كنت أردِّد ببلاهة: « يا إلَهي! » ثم أضاف:

« سيدفن هذا اليومَ.. وقد طلب مني بلاي أن أُبْلِغَكَ بأن تَحْضَرَ المراسم! »

وبعد لحظة قال وكأنه يحلُم:

« صحيحٌ أنه كان سكِّيراً، ولكنه كان محبوباً من الجميع.. إن الحياةَ على ظهر الباونتي ستصبح أسوأ مما كانت! »

ودُفِنَ الطبيبُ عند رأس « فينوس »، قربَ المكان الذي أقام فيه القائدُ كوك مَرْصَدَهُ، قبل عشرين عاماً من ذلك التاريخ؛ وأَبَّنَهُ بلاي بكلام جميل. وبعدَ أن انْفَضَّ الجمْعُ بقينا، أنا ونلسون وبيكوفر إلى جانب القبر. وكان نلسون شحب اللون من الحزن ومن أثر التسمُّم. وبعد لحظة أخرج من كيسٍ زجاجةً من النبيذ الإسباني وثلاثَ كؤوسٍ وقال:

«لقد كنا، نحن، أقربَ الأصدقاء إلى نفسه. وفي اعتقادي أن في استطاعتنا أن نُضيفَ إلى الاحتفال شيئاً يَسُرُّهُ!»

هنالك تولّى عالمُ النباتِ مَلْءَ الأكواب؛ ثم حسَرْنا رؤوسَنا وشربنا نَخْبَ صديقنا الراحل؛ وبعد ذلك حطّمْنا الزجاجةَ والكؤوسَ على بَلاَطِ القبر المَرْجانيّ.

شعرت بعد زيارتي الأولى للسفينة، عَقِبَ وفاةِ الطبيب، بأن التساهلَ الذي أبداه القائدُ بلاي منذ وصولنا إلى الجزيرة، قد آذن بالانتهاء؛ وعاد القائدُ الغضوبُ القاسي إلى سابق عهدِه. وقد أخبرني هيتيهيتي وكريستيان بأن هناك استياءً شديداً بين البحارة.

فقد اتخذ الضباطُ والبحارةُ أصدقاءَ لهم من

التاهيتيين، كانوا يقدمون إليهم مختلفَ الهدايا كالأقمشةِ والملابس والفواكهِ والخنازيرِ والطيور، والحِليِّ الثمينة. ولكن الجميع حُرِمُوا من هداياهم، ومنها ما هو عزيزٌ على قلوبهم كذكريات أو ما هو مُخَصَّصٌ لأمهاتِهم وأَخَواتِهم وأحبائِهم في إنكلترا. ذلك أن بلاي أصدر أمرَه إلى صموئيل بأن كلَّ ما يدخل السفينةَ ملكٌ لها. ويجب أن يُسجَّلَ ويوضَعَ في المخزن، فما يدخل ضمن الأغذية يوزَّع في أوقاته، حسب الكمياتِ المقرَّرة، وما ليس من هذا القبيل يُبادَل مقابل موادّ تموينيةٍ في الموانىء التي تتوقف فيها السفينةُ. وقد وقعت مُشَادَّاتٌ عنيفةٌ بسبب هذا القرار، كانت أخطرَها تلك التي وقعت بين بلاي وكريستيان حَوْلَ لؤلؤتين ثمينتين أهدتهما إليه ميميتي ليحملهما إلى والدته. وأغلظ بلاي في الكلام لكريستيان ونَعَتَهُ بنعوتٍ مُذِلَّةٍ، وَشَتَمَهُ أَشْنَعَ الشتائم.

وفي أواخر شهر آذار أقلعتِ السفينةُ من ساحلِ تاهيتي بادئةً رِحْلَةَ العودةِ، بعد أن أتَمَّتْ مُهِمَّتَها وجمعتْ نحوَ ألفِ نُصْبَةٍ من شجرة الخبز.

٥ . التَّمَرُّدُ

هـ نحن قد أصبحنا في عُرْضِ البحر. ويُخَيَّل إليّ أنه

لم يحدث لأيِّ سفينةٍ بريطانيةٍ عائدةٍ إلى الوطن، أن كان بحارتُها غيرَ متحمسين للرجوعِ إلى أهلِهم، كما كان بحارةُ الباونتي. وراحتِ الأيامُ تمرّ، فتزدادُ بعداً عن تاهيتي، التي ترك كل واحد منا فيها شيئاً من نفسه، وذلك لطولِ المدَّةِ التي قضيناها في تلك الربوعِ. وكان بلاي يقوم بدوراتِه التفتيشيةِ بانتظامٍ، ولكنه كان قليلَ الكلامِ؛ كما كان يقضي معظمَ وقتِه في حجرته عاكفاً على خرائطه. وظلَّت الأمورُ سائرةً على هذا المِنْوَالِ دونَ حوادثَ حتى يوم ٢٣ نَيْسَانَ، حيث طالعتْنا جزيرةُ «ناموكا» في أَرْخَبيلِ «الأصدقاء»، كما دعاه القائدُ كوك. وكان بلاي، الذي سبق له أن زارها مع كوك، يريد أن يزوِّدَ السفينةَ منها بالماء والخشب، قَبْلَ الاتجاهِ نحو مَضِيق «توريس». وقد ألقينا المراسيَ، عَصْرَ ذلك اليومِ، على مَبْعَدَةٍ منَ الجزيرةِ؛ وفي صباحِ اليومِ التالي تقدمنا شرقاً لنكونَ في مكانٍ أصلحَ للتزوُّدِ بالماء. وكان السكانُ قد علموا بِمَقْدَمِ السفينةِ، فأقبلوا، لا من جميع أنحاء ناموكا، بل من الجُزُرِ المجاورةِ كذلك. وكان هؤلاء الناسُ مختلفين تماماً عن أهل تاهيتي الطيبينَ الودعاءِ.. لقد كانوا، في أغلبِهم، من اللُصُوصِ، الذين لا يَدَعُون فرصةً تفوتهم دونَ أن يستولُوا على كل ما تصل إليه أيديهم

واقترح كريستيان على بلاي أن يُرسل حرساً مع الذين سيقومون بنقل الماء والحطب؛ فأجابه بغِلظة:

- هل أنت خائف من هؤلاء المتسوِّلين، يا سيد كريستيان؟!

- كلا! ولكنَّ الاحترازَ مطلوبٌ؛ ومن رأيي...

لا أحد سألك رأيك!.. إن معي امرأةً عجوزاً كمعاون! تعال، يا سيد نلسون!.. علينا أن نفعل شيئاً لبطْمئنَّ الجبناءُ!

ثم هبط، ووراءَهُ نلسون، إلى الزورق الذي حملهما إلى البرّ. وكان نلسون يريد أن يفتِّش عن نُصُوبٍ من شجرة الخبز، لتعويض الغِراس التي ماتت. وقد جرى ذلك على مشهد من البحارة؛ وشعرتُ أن كريستيان بذل مجهوداً كبيراً للسيطرة على نفسه.

ولعله من حسن الصُدف أنه لم يحدث شيءٌ في ذلك اليوم. ولكنَّ مخاوفَ كريستيان تحققت في اليوم الثالث؛ فقد نَزَلْنَا في زورقين على رأسهما كريستيان. ولم يرفض بلايِ إرسال فريقٍ للحراسة، ولكنّه أوصاهم بعدم استخدام السلاح. ولما وصلنا رأينا أعداداً كبيرةً من السكان تُحيطُ بنا. وقد بذلنا المستحيلَ لنبقيهم بعيدين

العصيان

عنا. ولكنهم كانوا يزدادون جراءةً كلما تقدمنا في عملنا. فلم يمضِ نصفُ ساعةٍ حتى كانوا قد جردوا الذين يقطعون الحطب من فؤوسهم. وفي رأي الذين كانوا حاضرين كان تصرُّفُ كريستيان في منتهى الحكمة؛ فبفضل هدوءِ أعصابه وحسن تصرُّفه تجنَّب الاصطدام مع أولئك التمرسين الذين كانوا يتفوّقون علينا في العدد، بواقع خمسين لواحد.

ولما عُدْنا إلى السفينة قدّم كريستيان تقريره عن الخسائر. فهاج بلاي هياجاً أصبح معه كالمجنون تماماً وراح يكيلُ لنائبه شتائم لا يجوز أن تُوجّه حتى إلى أصغر بحار. فما كان من كريستيان إلا أن دار على عقبيْه، ومضى إلى حجرته.

والعجيب في أمر بلاي أنه، بعد كلِّ نوبةٍ من تلك النوبات الجنونية، كان ينسى ما فعله أو تفوّهَ به. وكانت تعْقُب هذه النوباتِ عادةً فتراتُ هدوءٍ تدوم عدّةَ أيامٍ. ولكن في هذه المرة، وقع في اليوم التالي، أي في ٢٧ نَيْسانَ عامَ ١٧٨٩، حادثٌ مماثلٌ كانت له أوْخَمُ العواقب. كنا قد غادرنا مرسى «نِاموكا» عَصْرَ السادسِ والعشرين؛ وكان بلاي قد أمر صموئيل بإحصاء الأشياء التي أتينا بها من تلك الجزيرة. وكانت هناك كميةٌ من جوز الهند

مكوَّمةً على الظهر. ويبدو أن بِضْعَ جوزاتٍ قد اختفت. فأَطْلَعَ صموئيل القائدَ على ذلك. فجمع هذا الضباطَ. وراح يسأل كل واحد عن عدد الجوز الذي اشتراه. وبدأ بكريستيان الذي أجاب:

«في الحقيقة أنني لا أعرف هذا العددَ، يا سيدي! ولكن.. ليس من المعقول أن تظن أنني من الوَضَاعَةِ بحيث يمكن لي أن أَمُدَّ يدي إلى هذا الجوز؟!»

«بل أَتَّهِمُكَ، أيُّها الكلبُ الحقيرُ! لا بد أنك سرقْتَ منه، وإلا لما كنتَ تجهل عددَه!.. إنكم جميعاً من اللصوص!...»

ومضى يكيل الشتائمَ والتهديداتِ للضباط، وهو أمرٌ غيرُ مألوفٍ في البحرية. وكان هذا المشهدُ أقسى ما شَهِدْتُه من مشاهدِ الإهانات. وقد أصدر بلاي أمرَه إلى صموئيل بمنع «الغروغ» عن الضباط حتى إشعارٍ آخر، كما أمره بحمل الجوز، الذي اشتروه لأنفسهم إلى المخزن.

خَيَّمَ الصمتُ على السفينة، بعد تلك الحادثة. وعند العشاء كان الجميع كأنَّ على رؤوسِهِمُ الطيرَ. وكانت مائدتُنا أكثرَ الموائدِ صمتاً، لأن صموئيل كان معنا، وأيُّ حركةٍ تَصْدُرُ عن أحدنا لا بدَّ أن يُخْبِرَ بها بلاي.

قَبَيْلَ فجرِ اليومِ التالي أَفَقْتُ على يدٍ تضربُ كتِفي بعنف؛ وفي الوقتِ نفسِه سمعت صياحَ بلاي، مصحوباً بِجَلَبَةِ خطى كثيرةٍ وأصواتٍ مرتفعةٍ. ولما استعدْتُ وعيي رأيتُ تشرشل، مدرِّبُ السلاح، بالقرب من أرجوحة نومي، وكان يحمل غدَّارةً في كل يد؛ كما رأيت تومسون ومعه بندقيةٌ ثبَّتَ حربةً في رأسها، واندفع رجلان إلى داخل الحجرة، وصاح أحدهما:

«إننا معكم، يا تشرشل!.. أَعْطِنَا سلاحاً!»

قلت:

«تشرشل!.. ماذا حدث؟.. هل هوجمت سفينتُنا؟»

فأجابني:

«ارْتَدِ ملابسَك بسرعة، يا بايام!.. لقد استولينا على السفينة، وأسرنا بلاي!»

الحقيقة أن كل ذلك حدث في لَحَظَاتٍ، فظللت مشدوهاً، كأنني لا أُدْرِكُ مُؤَدَّى كلماتِه. فقال لي ستيوارت:

«لقد تمردوا يا بايام!.. هل أنتم مجانينُ، يا تشرشل؟! هل تُدركون حقاً ما تصنعون؟»

« نعم!.. إن بلاي استولى على كل شيء، ونحن نريد أن نجعلَه يتألم! »

وقال تومسون وهو يحشو بندقيَّتَه:

« إننا سنقتل هذا الكلبَ!.. وليحذرْ كلُّ من يخوننا!.. تشرشل!.. قيِّد هذين (وكان يقصدني ويقصد ستيوارت). لا يجب أن نَثِقَ بهما! »

فقال له تشرشل:

« اقفل فمك! واحرُسِ الصندوق!.. كنتال! أحرُس البابَ الجانبيَّ!.. لا تَدَعْ أحداً يذهب إلى مُقَدَّمِ السفينةِ دونَ إذْنٍ مني! »

فالتفتُّ فإذا بي أرى ماتيو كنتال واقفاً عندَ بابِ المطعمِ؛ ثم ظهر وراءه صموئيل وهو بالسِّرْوَالِ الداخلي، وقد زاد اصفرارُ وجهِه أكثرَ من العادة.. قال!

« سيد تشرشل! »

فصاح به كنتال:

« عُدْ، أيُّها الشقيُّ.. وإلا قذفت بك من السفينة! »

ولكن صموئيل ظل يندي:

« سيد تشرشل! سيد تشرشل! اسمح لي بكلمة! »

فقال تشرشل لكنتال: « أَخْرِجْهُ من هنا! » فرفع كنتال في وجهه البندقية، فإذا به يختفي كَلَمْحِ البصر.

ارتدينا ملابسنا، أنا وستيوارت؛ لأنه لم يكن أمامنا سوى أن نُطيعَ أوامرَ تشرشل وتومسون. وقد قرّ في رُوعي أن تشرشل هو الذي كان يتزعَّم حركةَ العِصْيَان، وأن المتمرِّدين لا بد أن يكونوا قد قبضوا أيضاً على كريستيان. ولكنَّ المشهدَ الذي رأيتُه على الظَّهر أدهشني إلى أبعدِ حدٍّ. فقد كان بلاي هناك مقيَّدَ اليدين، وما عليه سوى القميص. وكان كريستيان يُمْسِكُ الحبلَ، الذي قُيِّدَ به القائدُ، بيدٍ، ويحمل حربةً باليد الأخرى. وكان هناك مجموعةٌ من البحَّارةِ المدجَّجين بالسلاح.

ولما أوصلنا تشرشل قال لنا:

« ابقيا هنا، فنحن لن نؤذيكما، إلا إذا وقفتما ضدَّنا! »

أن يكون تشرشل قد تَمَرَّدَ على القائد، فذلك أمرٌ غيرُ مُسْتَغْرَبٍ، لأن بلاي عاقبَه عقاباً شديداً، عندما حاول الهربَ يومَ أن كنا في تاهيتي؛ أما أن يكون كريستيان على رأس المتمردين، فذلك ما لم أكن أتصوَّرُه رغمَ تصرفات بلاي الشاذَّةِ حيالَهُ. وقد أصعدونا إلى

الظَّهر لتفريق الطلاب البحريين، حتى لا تُتَاحَ لهم فرصةُ تبادل الرأي فيما بينَهم. وعندما اقتربنا سمعت كريستيان يقول لبلاي:

«أَمْسِكْ لسانَك، وإلا تولَّيْتُ أنا ذلك بنفسي!.. إنني الآن أنا الآمِرُ الناهي على هذه السفينة، ولن أتحمَّلَ تطاوُلاتِك أكثرَ من هذا!»

فصاح بلاي بأعلى صوته:

«إلى القَتَلَةِ!.. إلى الخونة!.. أنت؟! أنت الآمِرُ الناهي على سفينتي؟!.. أيُّها المتمرِّدُ الكلبُ.. والله لأجلدنك إلى أن أسلخَ جلدَك!..»

«اصمُتْ، وإلا قتلتك!»

قال كريستيان هذا وهو يضع رأسَ حربته على عُنُقِ بلاي، وينظر في عينيه. قال بلاي بصوت مختنق:

«سيد كريستيان! دعني أتكلَّمْ!.. فكِّرْ جيداً في ما تفعله الآن!.. أَطْلِقْ سَرَاحي وضَعِ السلاح!.. لِنَبْقَ أصدقاءَ. وَأَعِدُكَ بشرفي أن أنسى كلَّ شيء!»

– إن وعودك لا قيمةَ لها، أيُّها السيد! ولو كنت رجلاً شريفاً لما وصلتِ الأمورُ إلى ما وصلتْ إليه!

– وماذا تنوي أن تفعل بي؟

فصاح بوركيت وهو يدفعه ببندقيته:

«إننا ننوي قتلك، أيُّها الكلبُ القذرُ!»

وصاح آخر:

«تقتلونه؟! إن هذا أكثرُ مما يستحق! بل اربطه، يا سيد كريستيان، في شِبَاكِ التهوية ودعنا نُذِقْهُ طعمَ الجَلْد!»

وقال ثالث:

«أجل!.. هذا هو الصواب!.. لنقدِّمْ إليه كمُقَبِّلات السمّ نفسَه الذي يستخدمه، ثم لْننتزعْ قلبَه من دَفَّتَيْ صدره!»

فصرخ فيهم كريستيان بقسوة قائلاً:

«اسكتوا!» ثم وَجَّهَ الكلامَ إلى بلاي فقال:

«سنستخدم في حقِّكَ العدالةَ التي لم تعرفْها، يا سيدي.. سنُعيدُك في الحديد إلى إنكلترا!»

فتصايح عددٌ من الرجال محتجِّين:

«إلى إنكلترا؟!.. هذا لن يكونَ!.. لا نوافقُ على هذا، يا سيد كريستيان!»

وامتلأ المكانُ بصَيْحاتِ الاحتجاج، ومعارضةِ الاقتراحِ الذي تقدّم به كريستيان. وكانت تلك أحرجَ بُرْهَةٍ مرَّ بها بلاي، لأنه أوشك أن يفقدَ حياتَه. وللإنصاف يجب أن أعترفَ أن بلاي لم يضعُفْ ولم يَجْبُنْ. واستقرَّ الرأيُ، آخرَ الأمرِ، على أن يُرْكَبَ بلاي ومن يريد أن يتبعَه في زورقِ إنقاذٍ، ويُتْركوا إلى مصيرهم، ما دامت اليابسة لا تبعُدُ أكثرَ من تسعةِ فراسخَ. وما دام البحرُ في هدوء تامّ. وحاول بعضُ الضباطِ أن يَثْنُوا كريستيان عن عزمه. فقال فراير:

– ما هذا الذي تصنعه، يا سيد كريستيان؟! خلِّ عنك هذا الجنونَ، وَأَعِدُكَ بأن ندافعَ عن مصالحك!.. دعْنا نَعُدْ إلى إنكلترا...

– لقد جاء هذا متأخِّراً، يا سيد فراير!.. لقد عشتُ، أنا، في جحيمٍ خلالَ الأسابيعِ الماضيةِ!

– ولكنَّ مصاعبَك مع بلاي لا تمنحُك الحقَّ بأن تفرضَ قيادتَك على الضباط والبحارة!

– اسْكُتْ!

وأُعْطِيتُ الخِيَارَ بأن أُرافقَ بلاي أو أبقى على ظهر السفينة، فَاخْتَرْتُ، أنا ونلسون مرافقةَ بلاي. وذهبنا

لنحملَ مَتَاعَنا. وقد عرضَتْ لنا فرصةٌ للاستيلاء على صندوق الأسلحة، ولكن سُرْعَانَ ما فاتتْ، ولم نتمكّنْ من صنع أيِّ شيء. وعندما صَعَدْنا كان مركبُ بلاي يحمل أكثرَ من طاقته، فلم يقبل بلاي بأن ينضمَّ إليه أيُّ شخص جديد. ذلك أن الزورق يستوعب في العادة، اثني عشر رجلاً، ولكنه كان يضم تسعةَ عَشَرَ، وإلى جانبهم الأمتعةَ والمؤنَ والماءَ وغير ذلك من الأشياء الضرورية.

٦. فليتشر كريستيان

من الذين غادروا الباونتي مع بلاي جون فراير. القائدُ الثاني وتوماس ليروارد، الذي يقوم بأعمال طبيب السفينة، والمرشَّحُ توماس هيوارد، واختصاصيُّ النبات دافيد نلسون، ووليام بيكوفر، المدفعي، ووليام بورسيل، النجَّار، والسكرتير صموئيل، وغيرُهم.

أما الذين بَقُوا على ظهر السفينة فمنهم من قام بدوره في حركة التمرُّدِ، وفي طليعتهم فليتشر كريستيان، النقيبُ البحريُّ، وتشارلز تشرشل، مدرِّبُ السلاح، والبُسْتَانيُّ ويليام براون، وعددٌ من البحارة الممتازين مثلُ توماس باركيت، وماتيو كنتال وجون سومر، وألكسندر سميث، وتوماس أليسون وغيرهم؛ ومنهم من لم يشترك في

العِصْيان وهم إدوارد يونغ وجورج ستيوارت، الطالبان المرشحان، وجيمس موريسون، مراقبُ البحارة الثاني، وجوزيف كولمان، وكيل السلاح، وتشارلز نورمان، النجار الثاني، وتوماس ماكنتوش، النجار البحري، والبحار ويليام موسبرات، وكذلك البحارُ الضعيفُ النظر ميكائيل بيرن، وأنا نفسي.

ومن الواضح تماماً أن يكونَ هؤلاء، الذين لم يشاركوا الآخرين في تمرُّدهم، موضعَ شك من قبَلِ المتمرِّدين. غير أن معظمَ البحارةِ لم يكونوا يحملون لنا أيَّ عداء. أما بوركيت، الذي كان يريد قتلَ بلاي، وتومسون فقد أخذا يُرْهِقَانِنا بسُخْرِيَةٍ لاذعةٍ، بعد أن أمرنا تشرشل بأن نتجمّع عند الصاري الأكبر. وانضم إليهما ماك كوي وجون ويليمز؛ وقد مرّت لحظاتٌ كنا فيها على وَشَكِ الاشتباك؛ ولكن كريستيان وضع حدّاً لذلك، من حسن حظنا قال:

« تومسون! اذهب للاهتمام بعملك!.. وأما أنت، يا بوركيت، فإيَّاك أن تُحدِثَ شَغَباً وإلا وضعتك في الحديد!»

فصاح بوركيت:

« هكذا إذن؟!.. إننا لم نتمرّدْ لكي تتَّخِذَ مكانَ

بلاي وأساليبَه!»

وأيَّدَه ويليامز:

« كلا! كلا!.. وسترى ذلك بنفسك!»

فنظر كريستيان إليهما لحظةً، دون أن يتكلّمَ. بعد ذلك أمر بجمع الرجال في مؤخّرِ السفينة، ووقف يتحدث إليهم.. قال:

« هناك أمرٌ يجب أن نسوِّيَه بصورة نهائية، وهو: من سيكون قائدُ السفينة؟ فلقد سيطرتُ عليها بمعاونتكم، كيما نتخلّصَ من الطاغية الذي كان يدمّر حياتَنا. إننا الآن متمرِّدون، فإذا وقعنا في قبضة سفينة حربية من سفن صاحب الجلالة فلن ينجوَ أحدٌ منا من الموت؛ وهذا الاحتمالُ غيرُ بعيد، بقدْر ما تتصورون. وعلى فرض أن السيد بلاي تمكّن من الوصول إلى إنكلترا، فعلى الفور ستُرسَل سفينةٌ حربية للتفتيش عنا. وعلى أي حال فإذا مضى عامٌ ولم تعد «الباونتي» فستقوم سفينةٌ من إنكلترا لمعرفة مصيرها. عليكم أن تضعوا هذا نُصْبَ أعينكم!.. إننا لسنا متمردين وحَسْبُ، بل نحن قراصنةٌ أيضاً. فقد أخذنا سفينةً من سُفُنِ صاحبِ الجلالة. وقطعنا صلتنا نهائياً بإنكلترا، إلا إذا أردنا أن نعودَ إليها كأسرى،

مصيرُهم معروفٌ. كما لا يخفى عليكم.

«إن المحيطَ الهادئَ مترامي الأطراف؛ وهو لا يزال مجهولاً، ففي استطاعتنا أن ننجوَ من يد السلطة الإنكليزية، اللهم إلا إذا أوقعَنا جنونُ أحدِكم في قبضتها. وفي موقفنا هذا نحتاج إلى قائدٍ.. قائدٍ تُطاعُ أوامرُه دونَ مناقشةٍ. فإذا اخترتموني رئيساً عليكم فإني أُصِرُّ على أن يسريَ أمري على الجميع!.. لن أعاقبَ أحداً دونَ أسبابٍ موجِبة؛ ولكنني لن أقبلَ من أحدٍ عِصْيانَ أوامري. هذا ما عندي، وعليكم أن تختاروا الآن القائدَ الذي تريدون، وأنا مستعدٌّ لأن أتنازلَ له عن سلطتي!»

فالتفت سميث إلى الرجال وقال:

«أنا أختار كريسنبان!»

ووافق الجميعُ على ذلك برفع الأيدي. هنالك أضاف كريستيان قائلاً:

«بقي شيءٌ واحدٌ يجب أن نتفقَ عليه؛ فمعنا هنا عدد من الرجال الذين كانوا يفضلون المُضِيَّ مع بلاي لو استطاعوا!»

فصاح ميلز:

«ضعْهم رَهْنَ القيودِ، فقد يَخْلُقون لنا المتاعب لدى أول فرصة!»

فأجاب كريستيان:

«لن يوضعَ أحدٌ في القيود على هذه السفينة، إلا لأسباب وجيهة! إنني لا ألوم هؤلاء الرجال لعدم انضمامهم إلينا، فهم أحرارٌ في اختيار الجهةِ التي تُعجبهم؛ ولكنني أريد أن أعرفَ موقفَهم في الوقت الحاضر!»

فانضم يونغ إلى صفّ المتمردين؛ أما الباقون – وأنا منهم – فقد أعلنوا أنهم مستعدون لإطاعة الأوامر ما داموا على ظهر السفينة. فقال كريستيان:

«هذا يكفيني!.. ولكن يجب أن تعلموا أن واجبي يفرض عليّ أن أدافع عن رجالي، بمعنى أن مصلحتنا مُقَدَّمَةٌ على مصلحتكم، وليس لكم أن تطلبوا منا أكثرَ من ذلك!»

بعد هذا عمدَ القائدُ الجديدُ إلى تعيين معاونيه، فجعل يونغ قائداً ثانياً وستيوارت نقيباً ثانياً وموريسون رئيساً على البحارة، وجعلني، أنا عريفاً. وبقي تشرشل، كما كان، وكيلاً على السلاح، وبيركيت وهيلبرانت عريفيْ مناورات، وميلوارد وبيرن طباخَيْن. ثم قُسِّمْنَا ثلاثَ فِرقٍ للمناوبة.

وقد رُتِّبَتِ الحجرة الكبرى لكريستيان، ونُقِلت إليها صناديقُ الأسلحةِ لتكونَ سريراً له، واحتفظ بمفاتيحها، كما وَضَعَ حارساً دائماً على باب حجرته.

كان كريستيان يتناول طعامه منفرداً ولا يتحدث إلا ليُصْدِرَ أمراً ما. وكانت السفينة تتجه شرقاً بجنوب منذ أن غادرنا بلاي. وقد أصبحنا في مناطق مجهولة. ويبدو أن كريستيان كان يريد الوصول إلى جزيرةٍ غيرِ معروفةٍ؛ لأننا كنا نتوقف في الليل، حتى لا نمرَّ بجزيرةٍ لا نراها.

لقد سادَ السفينةَ الهدوءُ بعد رحيل بلاي، واختفى منها ذلك التوتُّرُ الدائمُ. وكان كريستيان يحافظ على النظام بدقة، دونَ اللجوءِ إلى العِقَابِ، كما كان يفعل القائدُ السابقُ.

ومضى نحو شهرٌ من ذلك التاريخ؛ وذاتَ صباحٍ أعلن المراقبُ ظهورَ اليابسة. كانت تلك جزيرةً جبليَّةً صغيرةً، تكاد تقارب تاهيتي من حيثُ الجمالُ. ويبدو أن أهلَها لم يروا سفينةً قبلَ ذلك. فلقد ظلوا على مسافة، وهم في قواربهم الجذعية. وحاولنا استمالتَهم ببعض الهدايا، فلم يقتربوا؛ فجعلناها في صُرَّةٍ، وتركناها تعوم على لوح من الخشب، فأخذوها وأخذوا اللوحَ. وخاطبتهم باللغة التاهيتيـــة، وسألتُهم عن اسم جزيرتهم. فظهر عليهم

الدَّهَشُ، وأجابوا بأن اسمَها «رارو تونغو»؛ وراحَ أحدُهم يتحدث بلغةٍ غيرِ مفهومةٍ. وكان واضحاً أنه كان في إمكاننا البقاءُ في هذه الجزيرة، ولكن كريستيان أصرَّ، على غيرِ انتظارٍ منا، بنشر القُلُوعِ والرحيل.

وفوجئت ذاتَ مساءٍ برسول من قبل كريستيان يُبلغني دعوتَه لي لتناول العشاء معه. ذهبت فوجدت أمامه نسخةً من الخريطة التي وضعها القائد كوك. لقد كان في حاجة إلى شخص يستطيع أن يُفضِيَ إليه بمكنونات نفسه. فلم تمض عشرُ دقائق على وجودي عنده حتى بدأ يُحدِّثُني عن التمرُّد.. قال:

«عندما أفكر في بلاي لا أشعر بأيِّ ندم، لأنني تألَّمْتُ كثيراً على يديه؛ لذلك لا أفكّر في مصيره! أما بالنسبة إلى الذين رافقوه..»

كان في صوته وفي تعابير وجهه لوعةٌ واضحة، حتى لقد شعرت بالشفقة عليه. وقد أدركت أنه لن يذوقَ طعم الراحة حتى آخر أيامه.

وقد أخبرني أن التمرُّدَ كان ابنَ ساعتِه؛ فقبل القبض على بلاي بعشرِ دقائق لم يكن يفكر في شيءٍ اسمُه تمرُّدٌ، على الإطلاق؛ وهذا ما أدهشني حقاً، لأن كلَّ شيء قد تمَّ

بدقة متناهية، حتى لكأنَّه خُطِّطَ له منذُ مدةٍ كافية.
وراح يروي لي كيف جرتِ الحوادثُ، قال:

« أَتَذْكُرُ يوم أن طلبت منك أن تذهب للقاء والدي في إنكلترا في حال حدوث أيِّ شيء لي؟.. لقد طلبت منك ذلك لأنني كنت عازماً على مغادرة السفينة. ولم أُطْلِعْ على ذلك سوى العريف جون نورتون، الذي كان في وسعي أن أثق به. لو كنت حدثتك بنيتي هذه لحاولتَ أن تُثْنِيَني، ففضلتُ كتمانَ الأمر عنك. أما نورتون فقد أعدَّ لي في الخِفية طَوّافةً، يمكنها في بحر هادىء أن توصلَني إلى جزيرة « توفووا ». ولكن الحظ عاكسني. فأنت تعرف أن ظهر السفينة لم يَفْرُغْ في ذلك اليوم، الذي كان فيه البحر هادئاً، والذي اتهمني فيه بلاي بسرقة جوز الهند. ومع ذلك، ففي الرابعة صباحاً، عندما تسلمت النوبة من بيكوفر، لم تكن فكرةُ التمرد قد خطرتْ لي على الإطلاق. ورحت أَذْرَع الجسرَ فذكرتُ الإهاناتِ المتكررةَ التي يوجهها إليّ بلاي. وامتلأتْ نفسي بغضب مدمِّر، حتى إني كنت، في تلك اللحظة، مستعداً للإقدام على قتل إنسان!.. إنني لا أُبَرِّر عملي الآن، ولكنني أروي لك الوقائع. والحقيقة أنني فكرت في قتله.. بل إن هذه الفكرة قد راودتني مراراً قبل ذلك؛ فكنت أسائل نفسي

قائلاً: لِمَ لا أقتلُه وأتخلَّصُ منه مرةً واحدة؟! وأنت تعلم أن هيوارد كان رَفيقي في الحراسة. فتوجَّهتُ إلى الجسر الأمامي الذي يتولّى حراستَه، كيما أهدِّىءَ أعصابي قليلاً. فوجدت هيوارد نائماً تحت الزورق. هذا الأمر كان من شأنه أن يُثير غضبي في ظروف أخرى، لأننا في حياة مجهولة؛ وقد أوصى بلاي باليقظة التامة، وله في ذلك مِلءُ الحق. كذلك وجدت جميع رفاقي نائمين. فوقفت أمام هيوارد أنظر إليه وهو غارق في النوم. هنالك خطرت لي فكرة، حتى لكأنَّ صوتاً أسمعه بأذنيّ، صاح بي: لِمَ لا تسولي على السفينة؟

« من هذه اللحظة بدأ عقلي يعمل بدقة وسرعة، كأنه مستقل عني، وأنَّ عليَّ أن أُطيعَ أوامرَه دون تردد. لم أفكر في ما سيصيبكم من شر نتيجةَ العمل الذي سأقوم به، لأن الفكرةَ، التي كانت مسيطرة عليّ، وهي أن الفرصةَ مُواتيةٌ ولا ينبغي تفويتُها. كان « بوركيت »، الذي طالما عاقبه بلاي. صاحياً؛ فطلبت إليه أن يهبطَ ورائي ويوقظَ تشرشل ومارتن وتومسون وكنتال، ويخبرَهم بأنني أريدُ التحدثَ إليهم، عند السلم الأمامية. وفي هذا الوقت ذهبت إلى كولمان، فأيقظتُه وطلبتُ منه مفتاحَ الصندوق لأنني أريد بندقية لقتل سمكةِ قِرْش.

فسلّمني المفتاح، وانقلب في أرجوحته، وعاد إلى النوم.

ووجدت « هاليت »، الذي كان من مناوبي الحراسة، نائماً على صندوق السلاح؛ فأيقظته بغضب، وأرسلته إلى جانب السلم الخلفية. وكان في غاية الخوف، وقد رجاني ألا أخبرَ بلاي بأنه كان نائماً.

وذهبت إلى الذين كانوا ينتظرونني، ففهموا خطتي في الحال. هنالك تسلحنا بالبنادق والغدارات، وتركت تومسون قرب صندوق السلاح لحراسته. وأيقظنا ماك كوي ووليامز وسميث والآخرين، فوافقوا على التعاون. وبعد أن تسلح الجميع، ووزّعت الحَرَسَ، توجهنا إلى حجرة بلاي لاعتقاله.. وأنت تعرف الباقي ».

ثم عاد إلى صمته، وقد وضع رأسه بين يديه. قلت:

« ما هي احتمالات النجاة أمام بلاي، والعودة إلى إنكلترا، في رأيك؟

– الاحتمالات ضئيلة!.. فأقرب مكان يستطيع أن يطلبَ فيه النجدةَ، هو « تيمور »، ويبعد عن النقطة، التي انطلق منها الزورق، ألفاً ومئتي فرسخ.. عندما استوليت على السفينة، كان في نيتي إعادةُ بلاي إلى إنكلترا معتقلاً. ولكنَّ الرجالَ لم يوافقوا على ذلك، كما

رأيت بنفسك؛ فاضطررت إلى النزول على رأيهم.. والآن تفكيري منصرف إلى حماية الذين شاركوني؛ فأقل ما يجب عليّ نحوهم هو ألا أدعَهم يقعون في أيدي السلطة! »

قلت: « ونحن؟.. ما هو مصيرنا؟ »

– لك مِلْءُ الحق أن تسألَ!.. لو أني أخذتكم إلى تاهيتي وتركتكم هناك تتدبرون أمرَكم لما ضَمِنْتُ ألا تتحدثوا عن التمرد!.. لهذا فأنا مُجْبَرٌ، مع الأسف، على الاحتفاظ بكم في الوقت الراهن، وعليكم أن ترضوا بذلك!

على أن كريستيان لم يتحدث إلي عن مشروعاته المقبلة. ولكنه لَمَّحَ إلى أننا سنرى اليابسةَ قريباً. وبالفعل لم يمض طويلُ وقت حتى ظهرت لنا عدةُ جُزُرٍ متقاربةٍ؛ وكانت أكبرُها هي، كما أخبرني ستيوارت، « توبوي » التي اكتشفها القائدُ كوك. ولما أقبلنا على الممر الذي يؤدي إليها، بين الجُزَيْرات المنتثرة، وجدنا أن السكان المحليين قد تجمعوا بِكَثْرَةٍ في انتظارنا. كان عددُهم يناهزُ التسعَمئةٍ، وكانوا جميعاً مسلحين، كما كانت زوارقُهم مملوءةً بالحجارة. وقد قذفونا ببعضها بواسطة المقاليع، فأُصيبَ عددٌ منا؛ لقد كانوا مصممين على منعنا من النزول في أرضهم. وقد اقترح بعضُ المتمردين أن يُديروا

عليهمُ المدافعَ؛ ولكنّ كريستيان رفض الاستماعَ إليهم، معلناً أن علينا أن نتعايشَ سلمياً مع سكان أيِّ جزيرة ننزل فيها، أو لا ننزلَ البتّةَ.

ودعا كريستيان رجالَه إلى الجسرِ الخلفيِّ للتباحث، وتَركَنا في الناحية الأمامية، باستثناء يونغ، الذي حَضَرَ الاجتماع، والذي لم نَشأْ أن نسأله عمّا تمّ فيه. ولكن لم تمضِ ربعُ ساعةٍ حتى عاد الجميعُ إلى أعمالهم. وأماراتُ الرضا بديةٌ على وجوههم. ورأينا السفينةَ تتجه نحو الشمال. إذن فقد كان الاحتمالُ الأكبرُ هو أنها متجهةٌ نحو تاهيتي. وإذا تم هذا فإنه يكون غايةَ المُرَادِ؛ لأننا في حال تمكننا من البقاء هناك، فلا بد أن تأتيَ السفينة التي سترسل وراء الباونتي، إن عاجلاً أو آجلاً، فنعودُ معها إلى أرض الوطن. وعلى هذا الأساس اتفقنا، أنا وموريسون وستيوارت، أن نهربَ فور وصولنا إلى تاهيتي.

في اليوم التالي دعاني كريستيان إلى حجرته، وكان معه تشرشل. قال لي والحزنُ بادٍ على مُحَيَّاه والإرهاقُ، إن السفينةَ متجهةٌ إلى تاهيتي، حيث ستبقى فترةَ أسبوعٍ أو أكثرَ، للتزود بما تحتاج إليه، وإنه كان ينوي أن يتركنا في هذه الجزيرة، حيث يمكننا أن نجدَ وسيلةً للرجوع إلى إنكلترا. ولكن جميع الرجال عارضوا في ذلك، لا لأنهم

يريدون بنا شراً، بل حرصاً على حماية أنفسهم. وقال إن الرجال طلبوا أن نُحْجَزَ خلالَ رُسُوِّ السفينة في « ماتافي » ونوضع تحت الحراسة؛ ولكنه طلب منهم أن أبقى أنا وموريسون وستيوارت طليقين، شريطةَ ألاَّ نُخْبرَ أهلَ تاهيتي بأيِّ شيء يتعلق بما حدث في السفينة. وأضاف أنه يؤسفه أن يخبرَنا بأنه لم يعدْ لنا أملٌ في العودة إلى الوطن، وأن علينا أن نضع هذا نُصْبَ أعيننا. فقد تقرر في الاجتماع أن ينزلَ في إحدى الجزر المجهولة، للبقاء فيها بصورة نهائية، بعد تحطيم السفينة.

خرجت وأنا منقبضُ الصدر، ووقفت على الظهر أنظر إلى الأبعاد. فإذا بستيوارت يضع يده على كتفي ويقول:

« انظرْ كيف يقذفون بأصص النصوب إلى البحر! »

أجل! ها هي ذي الغِرَاسُ التي تَحَمَّلْنا في سبيلها العناءَ والآلام، وقطعنا ألوفَ الأميال في بحار مجهولة وتحدّينا العواصفَ والأنواءَ وعطشنا لنُرويَها بالماء الذي ندّخره من أجل حياتنا.. ها هي ذي تسقط تِباعاً إلى قاع المحيط.

وتحدثت إلى ستيوارت عما دار بيني وبين كريستيان.

وقد اتفقنا على أن نهربَ بواسطة صديقته « بيغي ».

بعد ظهر الخامس من حَزيرانَ رأينا جبالَ تاهيتي ترتسم في الأفق البعيد. وبعد ظهر اليوم التالي ألقينا المراسيَ في خليج « ماتافي ». وقد نُبِّهَ الجميع بأن تكونَ روايتُهم واحدة، لتبريرِ غياب بلاي ومن معه، وتفسير عودةِ السفينةِ إلى تاهيتي بهذه السرعةِ، وهي: أننا وجدنا القائد كوك، والد بلاي، في جزيرة إتوتاكي، حيث يُنشىء مؤسسةً إنكليزيةً؛ وأن بلاي ونلسون والآخرين انتقلوا إلى سفينة القائد كوك، كما نُقلَتِ الغراسُ إليها بأمر من القائد، الذي أرسل السفينةَ باونتي إلى تاهيتي من أجل أن تتزوَّدَ منها بالمؤن.

وأقبل السكان علينا جماعاتٍ جماعاتٍ. وقد عجب هيتيهيتي وتينا والزعماءُ الآخرون من عودتنا سريعاً، وغيابِ قائدنا وصحبِه. ولكنّ الروايةَ السابقةَ أزالت عجبَهم. وقد تناولتُ العشاءَ، مساءَ ذلك اليومِ، على مائدة كريستيان مع صديقي العجوز هيتيهيتي وميميتي. وكان يبدو أن كريستيان قد وضع جانباً آلامَ نفسِه التي لم تفارقْه منذُ حركةِ التمرُّدِ. قال صديقي هيتيهيتي:

« ألا تنزل عندي يا بايام؟ »

فأحسست بنظرات كريستيان متجهةً نحوي وأنا أجيب:

« آسف! فإننا لن نُقيمَ سوى مدةٍ قصيرةٍ؛ ثم إن السيد كريستيان قال إن علي ألاّ أغادرَ السفينة! »

فأيدني كريستيان قائلاً:

« أجل! إنه سيبقى في السفينة طَوَالَ هذه المدة! »

فاقتنع هيتيهيتي لأنه يعلم أن النظامَ ليس موضعَ نقاش.

وكانت « بيغي »، صديقة ستيوارت قد جاءت بعد الظهر إلى السفينة. وعندما خرجتُ بعدَ العشاءِ وجدتهما معاً جالسيْن عند الصاري الكبير. وبعد أن ذهبتْ، تلاقينا أنا وستيوارت وموريسون. وأخبرَنا ستيوارت أنه تحدَّثَ إليها في أمر الهرب؛ وقد ظنت أنه يريد أن يهربَ من أجلها « وهذه نصف الحقيقة ». فوعدتْ بأن تبذل ما في وسْعِها لمساعدتنا. ولكن الزورق الكبير، الذي تمتلكه عائلتُها موجود في تيتياروا، وسترسل في الصباح من يأتي به، إن كانت الرياحُ ملائمة.

وفي اليوم التالي تغير الجوُّ واعتكرَ البحرُ وهبتِ الرياحُ باردةً، وما لبثت أن تحوَّلتْ إلى عاصفةٍ. لقد كانت

الطبيعةُ ضدنا. وظلت الرياحُ الجنوبيةُ تنفخ عدة أيام، بينما كنا ننقل إلى السفينة شُحْنةً عجيبة، كانت مؤلفةً من الخنازير والدواجن والكلاب والهِرَرةِ وغير ذلك من الحيوانات، حتى بدت السفينةُ وكأنها زريبةٌ من الزرائب. وفي آخر المطاف نقل الثورُ والبمرةُ اللذان تركهما القائد كوك في تاهيتي.

وبدأ أملُنا يتضاءل يوماً بعد يوم، لأن الدلائلَ كانت تُشير إلى قرب الرحيل. ولكنَّ الرياحَ تغيَّرت إلى شمالية شرقية في اليوم التاسع، وجاءنا زورقٌ؛ وتقرَّر هربُنا في تلك الليلةِ. ولكنَّ الحظَّ السيِّءَ عاد إلى معاكستنا في اللحظة الأخيرة؛ فقد أمر كريستيان بعد الظهر برفع المراسي!

كانت الأشهرُ الأربعةُ من حَزيرانَ حتى أيلول عام ١٧٨٩ أشبهَ بكابوس. فبالرغم من الاستقبال العدائي الذي استُقبِلنا به لدى زيارتنا الأولى لجزيرة توبوي، قرر كريستيان النزولَ والإقامةَ في هذه الجزيرة. وكان على ظهر سفينتنا بعضُ التاهيتيات، اللواتي سيصبحن جداتٍ لجيل بين الأبيض والأسمر، ومنهن ميميتي، صديقة كريستيان. بل وبعضُ التاهيتيين؛ ذلك أن أهل هذه الجزيرة مغرمون بالأسفار والمغامرات. فبعد أن ابتعدت

السفينةُ كثيراً عن الجزيرة، اكتُشِف أن هناك تسعة عشَر تاهيتياً، من الجنسين.

في هذه المرة اسْتَقْبَلَنا أهلُ « توبوي » استقبالاً وُدياً، في البداية، بفضل وجود التاهيتيين معنا. وقد شرح هؤلاء لأهل الجزيرة أننا نريد الإقامةَ في أرضهم. وعَمَدْنا إلى رفع السفينة إلى اليابسة، وأَقَمْنا فوقها سقفاً من الأغصان لحماية جسورها من الشمس. بعد ذلك رحنا نعمل ليلَ نهارَ في بناء حصن نلجأ إليه. وبذلنا في ذلك مجهوداً جبَّاراً إلى أن رفعْنا حصنَنا، الذي أحطناه بخندقٍ عُمقُهُ عشرون قدماً وعَرضُه أربعون. وكانت العَنْزات التي حملناها معنا لكي تُنتِجَ تنحدر من المرتفع إلى بساتين البُقُول والقُلْقَاس، التي يزرعها السكان ويُروونها بعَناء شديد، فتَعبثُ فيها. ولما لم يتمكن الأهالي من القبض على هذه الحيوانات الحذرة أو قتلها، طلبوا منا أن نقضي عليها فرفضنا، لأنها كانت تُعطينا غذاءً إضافياً. عندها بدأُوا يتضجَّرون؛ ثم اتخذوا موقفاً عَدائيّاً صريحاً، وأعلنوا أنهم لن يتوَانَوْا في العمل على استئصالنا أو إجبارنا على الرحيل. ورأحوا يُشنّون علينا الهجماتِ المتكررةَ، التي لم نكن نستطيع ردَّها إلا بواسطة المدافع. ولكنْ أصبح من المستحيل علينا أن نغادر الحِصْنَ إلا في

جماعاتٍ، وأصبحت حياتُنا لا تُطاق. فحتى أجراُ الرجال بيننا سئموا تلك الحربَ المستمرَّةَ، ولم يعودوا يحتملون البقاء.

في أوائل شهر أيلول جمعنا كريستيان وطرح مسألة الرحيل على التصويت، فرفع الجميعُ أيديَهم، مطالبين بترك الجزيرة. وقد أبدى ستةَ عَشَرَ شخصاً رغبتَهم في الذهاب إلى تاهيتي؛ أما الباقون فقد طلبوا أن يُفتَّشَ عن جزيرة غير آهلةٍ ليقيموا فيها. ولما علم أهلُ الجزيرة بعزمنا على مغادرة أرضهم، وافقوا على وقف الأعمال العَدَائيَّةِ لتمكيننا من إعادة السفينة إلى البحر.

بعد أربعة أيام من إقلاعنا، كنا نُلقي المراسيَ، مرةً ثالثةً في خليج « ماتافي ». أما الذين اختاروا البقاءَ على السفينة باونتي فهم كريستيان وميلز ويونغ ووليام براون ومارتن ووليام ماك كوي ووليامز وكنتال وسميث. وأما الباقون فقد آثروا الإقامةَ في تاهيتي.

وكان أول القادمين إلينا صديقي هيتيهيتي، الذي ما إن عَرَفَ أنني سأبقى في الجزيرة وأُقيمَ في داره حتى تهلَّلَ وجهُه بشْراً. ولما كان قد أتى بزورق جِذْعيٍّ مزدوجٍ، فقد حملت مَتاعي، دون إضاعة الوقت، ونزلت معه، بعد أن ودّعت كريستيان الذي طلب أن يجتمع بي

وبستيوارت في المساء.

وبعد أن وضعت أمتعتي،وخاصةً قاموسي المخطوط، في أماكنها السابقة من المنزل، وجدت نفسي محاطاً بمجموعة كبيرة من التاهيتيين الذين كانوا متعطشين إلى سماع قصة المغامرات التي قُمنا بها. فرويت لهم بلغتهم نزولَنا في جزيرة « توبوي »، وما حدث لنا فيها، وختمت حديثي بتقديري لشعب تلك الجزيرة، الذي يتلخص كلُّ ما فعله في أنه صدٌّ لما اعتبره غَزْواً لبلاده. وأضفت قائلاً:

« وغداً أو بعد غد سيبحر كريستيان وثمانيةُ رجالٍ آخرون إلى جزيرة إيتوتاكي للانضمام إلى القائد كوك؛ أما الباقون، الذين يُحبون جزيرتَكم فقد سُمح لهم بالإقامة فيها ».

لقد كان على جميع الذين سيبقَوْن في تاهيتي أن يَرووا القصةَ نفسَها دون تغيير أو تبديل.

وذهبتُ مساءً إلى الشاطىء في صُحْبَةِ ستيوارت وصديقتِه بيغي. أما والدها « تيبو » العجوز فقد بقي مع الآخرين؛ وأما هيتيهيتي فكان قد توجه إلى « الباونتي » حاملاً بعضَ المؤن لكريستيان ولابنة أخيه ميميتي.

وعندما هبط الليلُ أقبل زورق هيتيهيتي يحمل، إلى

جانب صاحبه، كريستيان وميميتي. وحيّانا كريستيان وقال:

«انتظراني!»

وتوجه إلى منزل ميميتي لوداع أهلها، فأشار ستيوارت إلى «بيغي» أن تتبعهم.

بقينا، أنا وستيوارت، جالسين على الرمال. وما لَبث كريستيان أن أقبل علينا. وحاولنا القيام له فطلب إلينا أن نظلّ كما كنا. ثم تربع على الرمال وقذف بقبعته جانباً. وبعد صمت طويل قال:

«هذه آخر مرةٍ أراكما فيها؛ فصباحَ الغد سنرفع الشراعَ!»

ثم استطرد بعد لحظة قائلاً:

«لقد رويت لكما قصةَ التمرد.. أرجو أن تذكرا أنني أنا وحدي المسؤولُ عنه!.. من المحتمل أن يكون بلاي والذين معه قد ماتوا الآن أو قُتِلُوا.. إنني لا أشعر بأي ندم بالنسبة إلى بلاي؛ ولكنَّ ذكرى الآخرين الأبرياء تُرْهِقُ ضميري. ومهما قيل في تفسير ما حدث وتبريره، فإن العملَ الذي قمت به لن يُغْفَر لي؛ أنا متمردٌ، وقد أصبحت قُرصاناً من يوم أن استوليت على سفينة تخصُّ

تيهانى

صاحب الجلالة!»

ثم قال لنا إنه سيطلب جزيرةً نائيةً مجهولةً، ويُقيم هو ومن معه فيها بعد إتلاف السفينة، وإنه لا بدَّ أن تصل سفينةٌ حربيةٌ للتفتيش عن المتمردين، ففي استطاعتنا، أنا وستيوارت أن نسلم أنفسنا لقائدها؛ ولن يَمَسَّنا أحدٌ لأنه هو الذي يتحمل المسؤولية. بعد ذلك طلب منا أن يذهب أحدُنا إلى أبيه - وهو تشارلز كريستيان القاطنُ في ميرلندلر بكمبرلند - ويروي له حقيقةَ الواقعة، ويخبره بأنه - أي كريستيان الابن - كان لا يريد سوى إبعادِ بلاي عن القيادة وإعادته أسيراً إلى إنكلترا، لعل هذا يخفف جريمتَه في عين أبيه.

بعد ذلك نهض ونهضنا، فوَدّعَنا، واقترب من المنزل وصاح: «ميميتي!» فأقبلت في الحال كأنها كانت تنتظر النداءَ. ثم ركبا الزورقَ وتوجَّهنا إلى الباونتي.

٧. تيهاني

ظَلِلْتُ مُرْهَقَ النفس خلال الأيام التي تلت رحيلَ الباونتي، رغمَ محاولات «هينا» وصديقي العجوز الطيب، هيتيهيتي، للتسرية عني. وقد أقام موريسون عند «بوانو»، المحارب الشهير، الذي يقع منزلُهُ قريباً من

منزلنا. أما ستيوارت فقد ساكن بيغي، في بيت والدها «تيبو» القائمِ عندَ أسفلِ «تلة الشجرة». وقد خطط موريسون وميلوارد لبناء سفينة شراعية، للسفر بها إلى باتافيا، حيث يمكن أن يعثُرا على سفينة كبيرة تُعيدهما إلى إنكلترا، أما ستيوارت، الذي يهوى زراعةَ الحدائق، فقد كان يصرف يومَه في تجميل الفِناء المحيط بالمنزل الذي كان يبنيه له تيبو العجوز. وعندما كنت أشكو إليه ما يساورني من آلام، كان يبتسم ويقول: «ولِمَ تحطِّمُ نفسَك وأنت لا تملكُ تغييرَ هذا الوضع؟!». وأدركت آخرَ الأمر أن العملَ المستمرَّ هو العلاجُ الوحيدُ للقضاء على الأفكار السوداء؟ فعدت إلى مُعْجَمِي أعمل فيه بهمَّةٍ ونشاط؛ وما لبثت أن انشغلت عن كل شيءٍ آخرَ.

وذاتَ ليلةٍ تولاَّني الأرقُ، فخرجتُ قبل بُزوغ الفجر بنحو ساعة، والنجوم ما زالت ملتمعةً في السماء، وسرت أتمشّى على طول الخليج الدائريّ، الذي ينتهي عند رأس «فينوس».

فجلست فوق كثيب، وادرت وجهي نحو الشرق حيث بدأتْ تظهرُ الأشعةُ الأولى. وفي تلك اللحظة طرق أذني صوتٌ. فلفت فإذا بي أرى زورقاً جذعياً كبيراً ذا أشرعة ينساب عبر الممر. وتقدّم الزورقُ بسرعة، وألقى

مِرساتَه الحجريةَ؛ ثم قفز منه رجل، وربطه بشجرة جوز هند.

ونظراً لكِبَر الزورق وكثرة الرجال الذين يقودونه، قدّرت أن صاحبَه لا بد أن يكونَ ذا مكانةٍ محترَمةٍ. ورأيت آخر الأمر آمرأتين تهبطان منه وتسيران غرباً ثم تختفيان.

وكانت الشمس قد ارتفعت عندما نهضت متوجهاً إلى النهر الذي يصب غربيّ الرأس. وكان يوجد بالقرب من المصبّ بقعةٌ ظليلةٌ رائقةُ المياه، كثيراً ما كنت أذهب للسباحة فيها، لأنها بعيدة عن المساكن. وكنت قد اخْتَرْتُ مكاناً مرتفعاً فوق النهر أطلقت عليه اسم «ويذيكومب»، وهو اسمُ الأرض التي نمتلكها في إنكلترا، لأنني كنت أجد بينهما بعضَ الشّبَهِ، وخاصةً عندما كان يحملني الخيالُ إلى أرض الوطن. وما لبثتُ أن نزلْتُ إلى المياهِ حيث كان من عادتي أن آخذ حمّامي الصباحيّ. وكم كان دهشي بالغاً عندما رأيت على الجذور الظاهرة لشجرةٍ باسقةٍ مُعَمِّرَةٍ فتاةً رائعةً كحوريّة من حوريّات الأنهار. ولدى اصطدامي بمياه النهر، وأنا أغطس، أحدثتُ صوتاً لفت نظرها. فراحت تحدّق اليّ؛ وفي الحال عرفْتها: إنها «تيهاني» التي رأيتها ترقصُ ذاتَ

ليلة في «تيتيارُوَا». لم يظهر عليها أيُّ أثرٍ للرهبة أو التوجس: ذلك أن البناتِ اللواتي في مثلِ مركزِها يعلمن أن أيَّ إهانةٍ تُوجَّه إليهن من شخص لا بدَّ أن تؤدّيَ إلى موته، ناهيك بالاعتداء الذي يُثير حرباً لا شكَّ فيها. من أجل ذلك كان هذا الواقع يمنح الفتياتِ من هذا النوع ثقةً تزيد في سحرهن.

حيّيْتُها على الطريقة التاهيتية؛ فردتِ التحيةَ وقالت: «أنا أعرفك!.. اسمك بايام، وأنت صديق هيتيهيتي!»

قلت:

«وأنا أعرفك أيضاً!.. أنت تيهاني، قريبة «بوانو»، وقد رأيتك ترقصين في «تيتياروا». فراحت تقهقه بمرح وقالت:

«وهل أعجبك رقصي؟»

– «إلى درجة أنني لا أزال أذكره حتى اليوم!»

فوصفتني بأنني ذوُ «لسان معسول»؛ وهي صفةٌ يُطلقها التاهيتيون على الذين يتقرّبون بالمديح والإطراء.

فتظاهرت بأنني لم أفهمْ ماذا تعني، ومضيت أقول:

«في تلك الليلة سألت هيتيهيتي: من تكون هذه

الفتاة التي تُجَسِّد إلَهة الرقص عينَها؟»

فراحت تكرر:

«أويرو مونا!»

ولكنَّ وجنتيها آصطبغتا بالحُمرة.

كانت قد خرجت لتوها من الماء، فكان شعرُها الفاحمُ الكثيفُ ينحدر على كتفيها في تموُّجاتٍ ملتمعة. وكان صدرُها الرائعُ مكشوفاً بكل براءة.

سبحنا معاً وتسابقنا فكانت تنساب في الماء بخِفَّة وليونة كأنها سمكةٌ. وقد تغلَّبتْ عليّ في جميع المباريات. ثم لما تعبتْ تحوّلتْ إلى الضفة، ووقفتْ عندها. لقد تغلغلت هذه الفتاة، ذاتُ الستةَ عشَر عاماً، في أعماق أعماقي.. سألتني إن كنت متزوجاً فأجبتها بالنفي. وتفاهمت روحانا.

وهنا نادتها مربيتُها فردت عليها بأنها قادمةٌ. وارتدينا ملابسنا وسرنا ويدانا متشابكتان. فلما رأتنا المربية فغرت فاه استغراباً. وعرّفني بعمّها «فهياتوا» الذي كان من كبار الزعماء التاهيتيين، وهو شيخٌ أشبُ مَهيبُ الطلعة. فراح يسألني عن هيتيهيتي وعن السفنة باونتي. وقد أعجبتْهُ معرفتي باللغة التاهيتية، فأخبرته

بالمَهَمَّةِ التي قَدِمْتُ من أجلها.

بعد هذا نهض فهياتوا وركب بين كتفي شاب من أتباعه مفتولُ العضل متين البنيان، وسرنا نحو منزل هيتيهيتي. والسبب في امتطائه «الرجلَ - الحصان» هو أن الزعماء العظامَ، مثلَه ومثلَ «تينا» لا يسيرون على أرض إلا وتصبحُ ملكاً لهم بحكم التقاليد الموروثة؛ ولهذا يركبون على ظهور أتباعهم إذا انتقلوا من مكان إلى مكان. وخرج هيتيهيتي لاستقباله خارج المنزل، نظراً لمكانته الرفيعة.

بعد الغداء، وخلال القيلولة، حدثْتُ هتيهيتي بأمر تيهاني، وأخبرتُه بأنني أحببتها وأنني أريد الاقترانَ بها، وكلّفتُه بأن يكون واسطتي لدى عمها.

ولما رأيتُ تيهاني أنبأتُها بما حدث، فأخبرتْني أنها هي أيضاً كلّمتْ عمَّها في الأمر. وهكذا تم الإتفاق على زواجنا. ونَقَلتُ مَتَاعي إلى مركب عمّها، الذي كان أكبرَ مركب رأيته حتى ذلك الحين في الجزيرة، وسافرنا إلى «توتيرا»، وهي المقر الدائم لفهياتوا، فوصلناها بعد ظهر اليوم التالي. وبعدنا بيوم واحد وصل هيتيهيتي وابنته لحضور حفلة الزفاف.

وأهداني فهياتوا منزلاً جديداً جميلاً لا يبعد سوى القليلِ عن منزله، وكان قد ابتناه أحدُ أتباعه من القادة، وتنازل عنه لفهياتوا عندما رأى أنه يريده لصهره. وانتقلنا أنا وهيتيهيتي وابنتُه وزوجُها إلى منزلي الجديد. وتمت مراسمُ الزواج حسب التقاليدِ المتبعةِ. وأقيمت حفلاتُ العُرْسِ، وأصبحت تيهاني زوجةً لي.

كنت في غاية السعادة مع تيهاني. وبعد مضي بضعة أشهر على زواجنا، أبحرنا لزيارة هيتيهيتي. ولرؤية صديقيّ ستيوارت وموريسون. وقد قطعنا المسافةَ - وهي قُرابةُ خمسين ميلاً - في خمس ساعات. وقال لي هيتيهيتي خلالَ العشاء:

« إن أصدقاءَك يبنون مركباً؛ ويدير العملَ موريسون وميلوارد، اللذان يسكنان عند بوانو ».

وفي الصباح ذهبت أنا وهينا وشقيقها وتيهاني إلى الحوض الصغير الذي يبنى فيه المركب؛ فوجدنا مجموعةً من الأهالي متحلّقين حول البيض يتابعون العمل باهتمام بالغ. وكان من بينهم الزعيمُ « تينا »، صاحبُ الأرض التي يُنَشأُ فيها المركب.

وأقبل علي موريسون يهنئني بحرارة على زواجي،

فقدمته إلى تيهاني. ثم جرى نحوي أليسون مسلّماً؛ وقال:

« ما رأيك بمركبنا، يا سيد بايام؟.. إن طولَه لا يزيد على ثلاثين قدماً، ولكن السيد موريسون يعتقد أنه يمكن أن يُوصلنا إلى باتافيا!.. واللهِ إنها لبطولة أن يبنيَ المرءُ مركباً دونَ مساميرَ ودون أدواتٍ.. لقد أطلقنا عليهِ اسْم « تصميم ».

وسلّمتُ على كولمان، قيّمِ السلاح في الباونتي، وهيلبرانت، صانع البراميل، ونورمان وماكنتوش، النجارين، وديك سكنير، الحلاق الذي جُلد في خليج « المغامرة ». كان الجميع يعملون بنشاط كبير تحدُوْ بعضَهُمْ الرغبةُ في العودة إلى الوطن، ويُحرّكُ البعضَ الآخرَ حرصُهم على الهرب من وجه السفينة الحربية، التي لا بد أن تأتي في يوم من الأيام.

وقُبيلَ الغروب توقف الرجال عن العمل، فتركت تيهاني تعود مع تينا وأخيها إلى المنزل، وذهبت في صحبة موريسون إلى حيث يُقيم مع ميلوارد عند بوانو، على سفح « رابية الشجرة »، قريباً من منزل ستيوارت.

وجدت ستيوارت يتنقل في حديقته الرائعة؛ فاستقبلني بحرارة ودعاني، أنا وموريسون، إلى تناول

العشاء. وكان الشاب أليسون قد تخطّانا متجهاً إلى منزله، الذي يقع على بعد ميل؛ فناداه ستيوارت ليقضيَ الليلةَ عنده

وسألت موريسون ونحن على المائدة:

ـ متى ينتهي مركبُكم؟

– قد يستغرق ذلك ستةَ أشهرٍ!.. إن العملَ يسير ببُطءٍ بسبب افتقارنا إلى المعدات الضرورية.

وقال أليسون:

« هل أخبروك بمشاريعنا، يا بايام؟.. إننا سننشىء مملكةً صغيرةً لأنفسنا؛ فنحن ضائعون، إذ ليس أمامنا سوى المشانقِ فيما إذا قُبضَ علينا.. لقد وعدنا السيد موريسون أن يوصلنا إلى إحدى الجزر الغربية ».

فقال موريسون:

« هذا خير ما يمكن أن يفعلوه. سأحاول أن أجدَ لهم جزيرةً يقبلُهم أهلُها في أرضهم.. إنهم اربعة: أليسون وميلوارد وهلبراند وسومر. أما تشرشل فإنه يفضّلُ البقاءَ، رغم أنه لن ينجوَ من حبل المِشنقة فيما لو بقي هنا. وأما ديك فهو مصمِّمٌ على الاستسلام للتكفير عن

خطيئته!.. وموسبرات وبوركيت موجودان في بابارا عند زعيم قبيلة تيفا؛ وكان بودهما أن يرحلا معي، ولكنهما قليلا الخبرة.. بقي تومسون.. إنني أنا الذي لا أريده على ظهر مركبي، لأنه حيوان! »

لقد سررت بمعرفة أخبار الرفاق من رجال الباونتي لأنني أحب أكثرَهم. وبقينا نثرثر حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ؛ فعدت بمفردي في الوقتِ الذي كان فيه الشاطىء يسوده الصمتُ.

في اليوم التالي حدث ما ذكّرني بقول موريسون عن تومسون إنه وَحْشٌ لا مثيلَ له. فقد ذهبت في الصباح، كعادتي، إلى الشاطىء للاستحمام، فوجدتُ هناك تشرشل وتومسون. ولست أدري ما الذي جمعَ بين هذين الرجلين، اللذين كانا يروحان ويجيئان معاً باستمرار ومعهما زورقٌ جِذْعيٌّ. الواقع أن تومسون كان مبغوضاً من الوطنيين؛ وكان هو نفسه يحمل لهم الشعورَ نفسَه ويحتقرهم؛ كما كان لا يسير إلا وهو يحمل بندقيته.

كانا يشويان لحم خنزير، فدعاني تشرشل بمودة إلى مشاركتهما في الأكل؛ فقال له تومسون:

« ليحملْكَ الشيطان!.. إنه لا يوجد سوى ما يكفينا،

نحن الاثنين!» فاغتاظ تشرشل وقال له:

«أقفلْ فمَك!.. إن بايام هو صديقي!.. اذهبْ إلى الوطنيين ليعلّموك الأدبَ، وأرجو أن يحطّموا رأسَك!»

فنهض تومسون غاضباً، واتجه إلى كَثِيبٍ رملي جلس عليه وبندقيتُه في حُجْره. فصادف أن أقبل جماعةٌ من السكان المحليين في زورق جذعي، هبط منه أولاً رجلٌ وامرأة؛ وكان الرجل يحمل طفلاً في الثالثة أو الرابعة. وتوقف الجمع أمامنا يُلقون علينا التحيةَ؛ وانحنتِ المرأةُ على زورق تشرشل وتومسون تفحص كثافتَه؛ فصاح تومسون بغلظَةٍ:

«أمشوا في طريقكم!»

فانحنى الجماعةُ بأدب دونَ أن يفهموا كلامَه. فعاد يهدِرُ:

«ابتعدوا!»

فنظر إلينا التاهيتيون مستغربين. وفي اللحظة التي كان فيها تشرشل يفتح فمَه ليتكلّم، أطلق تومسون النار على القوم؛ فاخترقت الرصاصةُ صدرَ الطفلِ ونفذت من جسد أبيه، فسقط الاثنان معاً، ودماؤهما تصبغ رمالَ الشاطىء. عندها أطلقتِ الأمُّ صيحةً هائلةً تحت تأثير

الفجيعة. فخرج السكان من المنازل القريبة واتجهوا نحونا. فما كان من تشرشل إلا أن جرى نحو تومسون فلكمه على وجهه لكمةً أفقدته الوعيَ؛ ثم أخذ البندقية، وحمل تومسون تحت ذراعه وجرّه إلى الزورق، ثم ألقاه فيه، وأقلع به بعيداً عن المكان.

أما أنا فقد خففت نحو الأب الذى كان يلفظ أنفاسَه الأخيرةَ؛ وسرعان ما رأيت أن الرجل وابنته قد فارق كلاهما الحياةَ. وضَربَتِ المرأةُ رأسَها بهَراوة فَشَجّتْهُ. وراحتْ ادماؤها تسيل. هنالك تسلّح، الذين كانوا معها، بحجارة كبيرة وأرادوا أن يُطْبقوا عليّ؛ ولكن هيتيهيتي وصل في اللحظة المناسبة؛ وقال لهم:

«دعوا هذا الرجلَ وشأنَه، فهو صديقي!.. لِمَ أنتم واقفون هنا تنتحبون كالنساء؟!.. هيا اركبوا زورَقكم واطلبوا قاتلَ سيدِكم.. إنني أعرفه.. إنه كلبٌ قذرٌ لا يمكن لإنكليزي واحد أن يحرك إصبعاً للدفاع عنه!»

وانطلق الرجال بزورقهم: ولكنني علمت فيما بعد أنهم لم يستطيعوا إدراكَ القاتل.

هذه المأساةُ وَجَدتْ خاتمتَها بعد نحو خمسةَ عَشَرَ يوماً.

كان تشرشل قد خاف أن يعود ورفيقَه إلى الساحل

الغربي لتاهيتي حيث كان السكانُ متحالفين مع قبيلة الضحية، فآثر المغامرة في المنطقة الصخرية منحدراً نحو الجنوب، ونزل في توتيرا، حيث استقبله فهياتوا على أساس أنه صديقي. ولكنَّ أنباءَ تومسون وصلت إلى هناك، فابتعد عنه الجميع، وأصبح عبئاً على رفيقه، الذي لم يكنْ يعرفُ كيف يتخلص منه. فلقد قال لي غداةَ عودتي:

«لكم أَودّ أن أقضي عليه؛ ولكن، يعلم الله أنني لا أستطيع أن أُطلقَ النارَ على أي إنسان!.. لقد أخطأتُ كثيراً في إنقاذه من يد الوطنيين!»

«لمَ لا تسلِّمهُ إليهم؟.. لولا أنه معك لكانوا قد صفُّوا حسابه!»

«لقد عرضت عليه أن يأخذ الزورقَ، ولا يُريَني وجهه.. ولكنه ما زال هنا.. انظرْ!»

كان تومسون يجلس عند الشاطىء، على نحو مئة متر؛ وكان يتحدث إلى بندقيته التي كانت بين ساقيه. قال تشرشل:

«إنه نصف مجنون!.. أنت تملك بندقية، فاجعلها دائماً في مُتَنَاوَلِ يدِك، ريثما يغادر هذا المكانَ!»

في ذلك المساء دعانا فهياتوا إلى حفلة رقص، كتلك التي شهدْتُها ذاتَ عشيةٍ في تيتياروا. وتجمع الناس في المكان المُعدّ للاحتفال. أما أنا وتيهاني فقد جلسنا مع تشرشل بعيداً عن الازدحام. ولم تَكَدِ الطبولُ تبدأ حتى سمعتُ أحد الوطنيين يصرخ محذّراً. وفي الوقت نفسه سمعت طلقةَ بندقية؛ فرأيت تشرشل ينهض، ثم يهوي وتسقط البندقية من يده التي كفّت عن الحركة. ورأيت تومسون يقفز غيرَ بعيد، طالباً لنفسه النجاةَ، وهو لا يزال حاملاً بندقيته. وصرخ فهياتوا: «اقتلوه!» فأخذ «اتوانوي» قائدُ المحاربين العملاقُ حجراً كبيراً وقذف به تومسون؛ فانطلق الحجر كالقذيفة وأصاب تومسون بين كتفيه، فألقاه أرضاً. وفي طَرْفَةِ عينٍ كان «أتوانوي» جاثماً فوق صدره، يحطم رأسَه الحجر نفسه. وعندما عدت إلى المنزل كان تشرشل قد فارق الحياة.

في ١٥ آب عام ١٧٩٠ وُلِدتْ ابنتُنا هيلانة. وقد أطلق أهلُ والدتها عليها اسمَ تيهاني مضافةً إليه مجموعةٌ طويلة من الألقاب. ولكنني أطلقت عليها، أنا، اسم والدتي. وكانت الطفلةُ رائعةَ الجمال؛ وأكثر ما كان يميّزها هو عيناها اللتان كانتا بلون البحر.

عندما أصبحت ابنتي في الشهر الثالث من عمرها

زارنا ستيوارت وبيغي؛ وكانا هما أيضاً قد رُزِقا طفلةً مثلَنا. وقد وجدتِ الوالدتان حديثاً لا ينضب عن طفلتيهما. أما أنا فقد كنت سعيداً برؤية صديقي.

وخلال الأسبوع الذي قضاه ستيوارت وزوجته عندنا ذهبنا، ذاتَ يوم، في نزهة إلى جزيرة « فينوا - إينو » الصغيرة. نحن الأربعةَ ومعنا طفلتانا و« تواهو » شقيق زوجتي، الذي يكبرني بعام واحد، فقضينا نهاراً ممتعاً ما زالت ذكراه محفورةً في نفسي حتى اليوم.

وبعد يومين عاد ستيوارت إلى ماتافيه، ولم أره بعد ذلك طَوَال أربعةِ أشهرٍ.

وانقضى عام ١٧٩٠، وكان أهنأَ فترة في حياتي. ودخل عام ١٧٩١ وكانت أشهره الأولى مشابهةً للعام السابق. وفي منتصف شهر آذار أبحرت تيهاني إلى الجهة الأخرى من الجزيرة لحضور أحد الاحتفالات الدينية. ولما كنت أضيقُ بمثلِ هذه الاحتفالات فقد بقيت في توتيرا، أنا وشقيق زوجتي. وكان قد مر أسبوع على غياب زوجتي عندما وصلت إحدى السفن إلى الجزيرة. كنت في الليلة السابقة قد تأخرت في السهر، ولهذا ارتفعت الشمس في صباح اليوم التالي، وأنا لا أزال غارقاً

في النوم. ثم أفقتُ مذعوراً وأخو زوجتي يهز ذراعي ويقول بصوت لاهث:

« بايام!.. قُمْ بسرعة.. هناك سفينةٌ! »

وتبعته إلى الشاطىء حيث كان قد تجمع عدد كبير من السكان وراحوا ينظرون نحو الغرب. كان هناك، في البعيد البعيد، رأسُ سفينةٍ لا يكاد الناظرُ أن يميزَه.

كان الاهتمام بادياً على وجوه الجميع.. قال بعضهم:

« إن كانت إسبانيةً فستأتي إلى هنا! »

وقال آخرون:

« وإن كانت فرنسيةً فستذهب إلى هيتيا! »

وقال « تواهو » وهو ينظر إليّ كأنه يريد تأييداً:

« أما السفن الإنكليزية فتذهب إلى ماتافي! »

وسألتني « تيتوانوي »، عمّةُ زوجتي:

« أتُراها إنكليزية؟ »

فرفعت كتفيّ، كأنني أقول: لا أدري.

وجلسنا على الحشائش وظللنا ننظر إلى ناحية السفينة. وبينما كانت تتقدم ببطء، وتتصاعد الشمس في

السماء قَرَّ في رُوْعِي، نظراً إلى شكل الأشرعة العليا، أنها إنكليزية. فَهَبَبْتُ واقفاً، وقلت لتواهو:

« تواهو! أعتقد أنها إنكليزية!.. هيا نأخذ زورقاً ونركب إلى « ماتافي » .

وكانت الريحُ تهبُّ على طول الشاطىء مما جعلنا ننطلق بسرعة، في حين أن تَقَدُّم السفينة المقبلة ازداد بُطئاً.

وعندما وصلنا إلى « ماتافي » كان كلُّ السكان، وفي مقدمتهم هيتيهبتي، منجمعين على جبل « الشجرة الوحيدة »، الذي جعلوه مركزَ مراقبةٍ لهم.

٨ . الياندور

كان على المرتفع خلق كثير، أتوا من كافة الأنحاء، حتى أنني وجدت صعوبة في العثور على ستيوارت. كان يقف مع جماعة من الوطنيين قربَ الشجرةِ المزهرةِ التي أعطت اسمَها للجبل؛ فخف نحوي وقال:

– لقد انتظرتك منذ الصباح، يا بايام!.. هل تستطيع أن تفيدني بشيءٍ عن هذه السفينةِ، فلا بد أنك رأيتَها أثناءَ مجيئك؟

– نعم.. إنها فُرْقَاطَةٌ إنكليزية!

ماذا نفعل؟.. ها هو ذا الوطنُ يأتي إلينا! ولكن تاهيتي أصبحت وطناً ثانياً لنا. تشدُّنا إليه أواصرُ حميمةٌ!.. إن الاختيار بين البقاء والعودة إلى الوطن إنما هو امتحان في غاية الصعوبة!.. قال ستيوارت بحزن:

– وزوجتانا وطفلنا، ماذا نفعل بهن؟.. هل أنت متأكّدٌ من أنها إنكليزية؟

– كلَّ التأكُّد!

– مسكين إذن موريسون، فقد أبحر، منذ أربعة أيام، على ظهر المركب الشراعي الذي ابتناه، متجهاً نحو الغرب.

– لقد أخبرني أن جميع المتمردين الموجودين في تاهيتي، باستثناء سكينر، سيسافرون في مركبه « تصميم ».

ولما أصبحتِ السفينةُ على بعد نحو خمسة أميالٍ أو ستة، سكنت الريحُ تماماً؛ لهذا توقفت في مكانها، وعلمنا أنها لن تدخل ماتافي قبل الصباح. فانحدرنا من الهضبة كما انحدر السكان المحليون؛ وذهبنا إلى منزل « تينا »،

فوجدنا عنده سكينر وكولمان، اللذين كانا في نزهة عادا منها لتوّهما. وانحدرت الدموعُ من عيني كولمان عندما أخبرناه بأمر السفينة.. لقد كان له في إنكلترا زوجةٌ وأولادٌ، وقد ظل وفيّاً لعهد زوجته فلم يرتبط بأي امرأة. أما سكينر، الذي كان قد شارك في التمرد، فقد ندم على فعلته وصمَّم على تسليم نفسِه ليكون عِقابُه عِبرةً لغيره.

قضينا الليلَ ساهرين، ولما قَرُبَ الصباحُ اقترح علي تواهو أن نأخذ قارباً ونذهب إلى السفينة؛ فنزلتُ على رأيه، واصطحبنا خادمه «باووتو». ولما أصبحنا على بضع مئات من «اليردات» عن الفرقاطة ذكرتُ أنني أرتدي الملابسَ الناهيتية لا ملابس الطالب البحري. والواقع أن بِزَّتي الرسميةَ، التي تركتها منذ هبوطي الجزيرةَ، قد اتلفتْها الفئرانُ.

كانت الفرقاطة ذاتَ أربعةٍ وعشرين مِدفعاً؛ وقد وقف القائدُ والضباطُ ينظرون إلينا. ثم أُنزلتْ إلينا السلمُ فارتقينا إلى ظهر السفينة.

ظنني الضباطُ تاهيتياً، لأنني كنت مثل تواهو. وربّت أحد النقباء البحريين كتف تواهو مبتسماً وقال:

«ميتي.. ميتي! أَيْ حسنٌ، حسنٌ!»

فقلت له:

«تستطيع، يا سيدي أن تخاطبه بالإنكليزية، فقد أصبح يحسن التحدث بها!.. إنني أدعى رودجر بايام، وأنا طالب بحري سابق على السفينة باونتي.. في استطاعتي أن أكون دليلَكم لتصلوا إلى المرسى!»

فما إن سمع اسمي واسم الباونتي حتى انقلبت سَحْنَتُه، وراح ينظر إليَّ من أعلى إلى أسفل بصرامة؛ ثم صاح:

«أيُّها العريفُ! خذ هذا الرجلَ إلى الخلف!»

وما كان أشدَّ عجبي عندما أقبل أربعةُ رجال وساقوني بينهم إلى حيث كان يقف القائدُ، على الجسر الخلفيّ.. قال له النقيب البحريّ، الذي كان يتقدمنا:

«ها هو ذا أحدُ المتمردين!»

قلت:

«لست منهم، يا سيدي!»

أجاب بغلظة:

«اسكتْ!»

فاسترسلتُ قائلاً:

«اسمح لي بالكلام، يا سيدي! أنا لستُ أحدَ المتمرّدين.. إنني أدعى...»

– ألم تسمع، أيُّها الحقيرُ؟!.. لقد أمرتُك بالسكوت!

استولى عليّ الخجل والغضبُ، ولكنّي ضبطت نفسي، على اعتقادٍ مني أن هذا الخطأَ لا بد أن يُصْلَحَ عمّا قريب. وكان تواهو ينظر مصعوقاً من الدَّهَش؛ وقد مُنعْتُ من التحدث إليه.

ثم وُضِعتِ القيودُ الحديدية في يديّ، وأُوْقِفْتُ على باب حجرة القائد، حيث لَبِثْتُ ساعتين دون أن أرى أحداً غير حارسي، الذي كان يرفض الكلامَ معي. خلالَ هذا الوقت دخلتِ السفينةُ إلى المرسى، وتوقفت في المكان نفسه الذي رست فيه الباونتي منذ ثلاثة أعوام.

ورأيت من بعيد زوارقَ السكان مقبلةً على الفرقاطة، التي تدعى «باندور»؛ وكان في أحد هذه الزوارق كولمان وستيوارت، وكان ستيوارت يرتدي بزَّة الطالب البحري.

ثم جاء القائد، ويدعى إدواردس، إلى حجرته، ومعه النقيبُ البحريُّ، السيد «باركن». وما إن جلس إلى مِنْضَدَتِه حتى أمر بأن أُسَاقَ إليه. وبعد أن تفحَّصني

طويلا، قال:

«هل كنت طالباً بحرياً على السفينة المسلحة «باونتي»؟

– نعم، يا سيدي!

– كم رجلاً يوجد الآن في الجزيرة من طاقَم الباونتي؟

– ثلاثة، بدوني!

وذكرت له أسماءهم.

– أين فليتشر كريستيان، وأين الباونتي؟

فرويت له كل ما أعلم عن هذا الموضوع؛ وأخبرته بأمر المركب الذي بناه موريسون، الذي ينوي أن يصل به إلى باتافيا ليركبَ منها سفينةً تُعيدُه إلى الوطن. فقال ساخراً:

– يا لها من قصة طريفة!.. ولماذا لم ترافقْه أنت؟

– لأنني رأيت أن المركبَ قد لا يتمكَّنُ من القيام بهذه الرحلةِ الطويلةِ؛ فآثرتُ انتظارَ إحدى السفن البريطانية هنا!

- وأنت واثق أن مثلَ هذه السفينةِ لن تأتي أبداً!..

قد يُدهشك أن تعلمَ أن القائدَ بلاي، الذي طُرِدَ من سفينته، قد عاد ورجالَهُ إلى إنكلترا!

- إنني سعيد بهذا النبأ!

- وقد يُدهشك أن تكونَ كلُّ تفاصيل التمرد، بما فيها نذالتُك أنت، قد أصبحت معروفةً؟!

- نذالتي؟!.. إنني، يا سيدي، بريءٌ من هذا العمل كأي واحد من رجالك!

- كيف تستطيع أن تُنكرَ أنك تآمرتَ مع كريستيان للاستيلاء على الباونتي؟

- لا بدَّ أنك تعلم، يا سيدي، أن عدداً من رجال السفينة قد اضطُروا إلى البقاء على الباونتي، لأن مركب القائد بلاي لم يعد قادراً على استيعاب أحد.. وعند آخر لحظة أعلن القائد بلاي أنه سينُصف الذين تخلَّفوا، إذا قُدِّر له أن يعود إلى إنكلترا. فكيف أُعامَل الآن كقُرصان؟!.. لو كان القائد بلاي موجوداً..

فقاطعني قائلاً:

- كلُّ آتٍ قريبٌ!.. ستعود إلى إنكلترا وتنال العِقابَ

الذي تستحقه! والآن أتريدُ أم لا تريد أن تقولَ لي إلى أين توجهت الباونتي؟

- لقد رويت لكَ كل ما أعرفه، يا سيدي!

- كن على ثقة أنني سأعثر عليها وعلى من فيها؛ وأؤكِّدُ لك أنك لن تستفيدَ، لا أنتِ ولا سواك، من هذا التضليل!

كنت محطَّمَ الأعصاب إلى درجةٍ أنني لم أستطعِ الردَّ. صحيحٌ أني لم أتحدَّثْ إلى القائد بلاي يومَ التمرُّدِ، ولكنَّ نلسون والآخرين يعلمون أنني كنت أريد أن أرافقَهم في المركب.

وطلب القائدُ السيدَّ توماس هيوارد، رفيقي السابقَ في مطعم الباونتي. فلما جاء خَطَوْتُ نحوه فرحاً؛ ولكنه قذفني بنظرة احتقار. قال له القائد:

- هل تعرف هذا الرجل، يا سيد هيوارد؟

- نعم، يا سيدي!.. إنه رودجر بايام!

- هذا يكفي!

بعد هذا أنزلوني إلى مكانٍ مظلمٍ في جانب الفُرنِ، لا بد أنه أُعِدَّ حصّصاً للسجناء. ووضعوا السلاسل في

رِجلَيَّ. وبعد ساعة أتوا بكولمان وستيوارت وسكينر ووضعوا القيودَ والأغلالَ في أيديهم وأرجلهم. كما فعلوا بي؛ ومْنعونا من التحدث فيما بيننا.

بعد أربعة أيام قضيناها في ذلك المكان الخانق أدركْنَا حقيقةَ وضعنا البئيس، وعلمنا أنه لم يعد لنا أمل. كنا لا نعرف الليلَ من النهار إلا بالقياس إلى وجبتي الطعام اللتين تُحْمَلُ إلينا إحداهما في الصباح والأخرى في المساء.

في صباحِ اليوم الخامس جاء عريفٌ من مشاة البحرية ومعه حارس إضافي فكّ قيودَ رجليّ؛ ثم قادني الاثنان إلى حجرة في مُؤَخّرِ السفينة كان ينتظرني فيها الطبيبُ، الدكتور هاملتون. وعندما رأى الطبيبُ يديّ مقيدتين، طلب من العريف نزعَ القيدِ؛ فتلكّأ هذا وقال:

«هكذا أَمَرَ النقيب باركن!»

قال الطبيب:

«أطعْ!.. أنا آخُذُ الأمر على مسؤوليتي!»

وبعد أن خرج العريف والحارس، أقفل الدكتور هاملتون الباب بالمفتاح، وقال:

«لم أتَّخِذْ هذا الإجراءَ من أجلك، يا بايام، ولكنني لا أريد أن يقطع حديثَنا أحد .. اجلس!»

كان الطبيب قويَّ البنية، سَمْحَ الوجه يناهز الأربعين من العمر؛ وقد مال قلبي إليه منذ اللحظة الأولى.

سألني عن المعجم فأخبرته بأنه لم يمرَّ عليّ يومٌ دون أن أُضيفَ إليه شيئاً جديداً. فأبدى لي ارتياحَه وقال إن سير جوزيف لم يضع ثقتَه فيّ عن عبث. عندها سألته إن كان سير جوزيف يشكُّ في براءتي. فأجابني بأن سير جوزيف مؤمنٌ ببراءتي، كما أنه، هو نفسَه مؤمنٌ بها، ولكنَّ التهمةَ الموجهةَ إليّ بالغةُ الخطرِ، ومن الصعب جداً تبرئتي منها. فقد جاء في التقرير الذي رفعه بلاي إلى الأميرالية والذي قرأه سير جوزيف برُمَّتِه، أن بلاي رآني ليلةَ التمرد واقفاً مع كريستيان وسمعني أقول له: «تستطيع الاعتماد علي، يا سيدي».

فصُعِقْتُ لأن هذا الجزءَ من الحديث، الذي دار بيني وبين كريستيان، يُثبتُ عليّ تهمةَ التآمر مع كريستيان، ولبلاي مِلْءُ الحقِّ في اتهامي على هذا الأساس. قلت للطبيب:

« الواقع أنني قلت هذا الكلام، ولكنْ في شأن بعيدٍ كلَّ البعدِ عن مسألة التمرد ». ثم رويت له الأحداث كما وقعت. فلما انتهيت قال:

« لقد اقنعتني، يا بني، وهذي يدي! » وصافحني بحرارة ثم أضاف:

- ولكنْ هل هذا سيُقنع أعضاءَ المحكمة العسكرية؟! إن ما سيقولونه، تعليقاً على روايتك، أن هذه روايةُ طالب بحريّ ذكيّ يحاول تبرئةَ نفسِه.

- ولكن روبرت تنكلر قد سمع حديثي، كما قدّمت لك!

- نعم! إن حياتَك بين يدي تنكلر، الذي عاد سالماً مع الذين رافقوا بلاي.. ولكن هل يصدِّق أعضاءُ المحكمة أن رجلاً ذكياً ككريستيان يمكن أن يعتقد أنّ في وسعه القيامَ برحلة طويلة على طَوْف؟.. لا بدَّ في هذه الحالة من شاهد يؤيدُ ادِّعاءَك.

- هناك جون نورتون، أحدُ العرفاء، الذي صنع بنفسه الطَّوْفَ!

- يؤسفني أن أقول لك إن نورتون ليس في عِدَاد الناجين، فقد قُتل، كما يروي التقريرُ، على يد المتوحشين

في جزيرة « توفُوَا ».

لقد صدمني موتُ نورتون صدمةً عنيفةً لأنني خسرتُ فيه شاهداً على براءتي. كذلك أخبرني أن السيد نلسون قد مات بالحُمَّى؛ وهذا لم أخسر فيه الصديقَ فقط، بل المنقذَ أيضاً، لأنه كان على علم بأنني كنتُ أريد النزولَ مع بلاي.

ولما رأى ما اعتراني، قال يشجعني:

« لا تذهب بعيداً في التشاؤم؛ فإن شهادةَ تنكلر أهمُّ بكثيرٍ من شهادتَي نورتون ونلسون؛ وثِقْ أن المحكمةَ ستستمع إليه.. إن سير جوزيف لن يُهْمِلَ أقلَّ شهادةٍ يمكن أن تُفيدَك.. صدِّقني: إن مسألتَك أبعدُ من أن تكون ميؤوساً منها! »

ثم روى لي الدكتور هاملتون ما كنت أريد معرفتَه بخصوص بلاي ورفاقِه. فقد ذهب بلاي بالمركب إلى « توفُوَا » ليتزودَ منها بالماء والأغذية. ولكن المتوحشين هاجموهم لمّا رأوا أنهم غيرُ مسلحين كما ينبغي. وقد أوشكوا أن يموتوا عن آخرهم. ولكن لم يُقْتَلْ منهم سوى نورتون. وتلت ذلك مغامراتٌ كان من شأنها أن تقضيَ عليهم لولا وجود بلاي على رأسهم. وفي ١٤ حزيران، أي

بعد سبعةٍ وأربعين يوماً من التمرد وصلوا إلى خليج «كوبانـغ» بجزيرة «تيمور»، حيـث تقوم المنشآت الهولنديةُ. وبعد شهرين اشتروا مركباً حملهم إلى باتافيا، التي وصلوها في أول تشرين الأول عام ١٧٨٩. وقد توفي ثلاثةٌ منهم: هم ألفنستون ولنكلتر، آخِرُ عريف، والبحّار توماس هول؛ أما لدوارد، القائمُ بأعمال الطبيب، فقد بقي في باتافيا. وركب الباقون إحدى سفنِ الشركة الهولندية للعودة إلى إنكلترا. ومات أثناء الرحلة الجزّار روبرت لامب. ووصل إلى إنكلترا اثنا عشر رجلاً من أصل تسعة عشر. وكان لوصولهم تأثيرٌ كبير. وأصبحت قصةُ التمردِ حديثَ المجالس؛ واعتبر الرأيُ العامُّ الذين ظلوا على ظهر الباونتي آنذالاً من الطِرازِ الأوّل. قلت للطبيب:

– وماذا قال القائد بلاي عن أولئك الذين يعلم أنهم أبرياءُ، وإن كانوا قد اضطرُّوا للبقاء؟

– لقد اطَّلعْتُ على الأوامر الصادرة إلى القائد إدواردس من قبل الأميرالية: إنها تعتبرُ جميعَ الذين لبثوا على الباونتي متمردين لا فرقَ بينهم!

بعد ذلك سلَّمني رسالةً من والدتي أعطاه إياها سير

جوزيف ليحملها إليّ. في هذه الرسالة تشجعني والدتي وتستسخف التُّهمةَ المُوَجَّهةَ إلي، وتخبرُني بأن سير جوزيف على يقينٍ تامٍّ من براءتي. وقد ضمَّت والدتي إلى رسالتها كلمةً بعث بها القائد بلاي إليها رداً على خطابٍ كانت قد وجهته إليه. وفي هذه الكلمة يواسيها على ما أصابها من جراء سلوكي، ويقول: «إن نذالتي تفوق كل وصف».

بعد أن انتهيتُ من القراءة عُدْتُ إلى الوكْرِ المظلم الذي كنت سَجِيْناً فيه.

٩. البيت المستدير

في اليوم التالي نُظِّف سجنُنا للمرة الأولى: وللمرة الأولى حُمِل إلينا دَلْوٌ من ماء البحر، سُمِح لنا بغسل وجوهنا وأيدينا فيه! لقد كانت حالتُنا تُدمي القلوبَ. وما إن انتهينا حتى أقبل القائدُ ووراءه «جلادُنا» النقيب باركن.. كانت رائحةُ المكان رهيبةً للغاية، وكانت أجسادُنا العاريةُ تلتمع تحت ضوء الشمعتين، اللتين أُتِيَ بهما في ذلك النهار، بسبب العَرَقِ المُتَصَبِّب منها. وخطر لي أن احتجَّ على المعاملة غيرِ الإنسانية التي نُعامَل بها، ولكنني رأيت أنَّ حالتَنا أفصحُ من كلِّ لسان.. غير أن القائدَ لم يهتمَّ إلا بقيودنا؛ فقد رأى أن

القيد في يَدَي ستيوارت رخوٌ، فقال للنقيب:

– سيد باركن! كلّفْ قَيِّمَ السلاح بفحص القيود، وأخبرْه بأنني سأعتبره مسؤولاً فيما إذا تمكّن أحدُ السجناء من الهرب!

– سأهتمّ بهذا بنفسي في الحال!

كان باركن قصيراً يكسوه الشعرُ بصورة تُلفِتُ النظر، ويَلْتَفُّ حاجباه عند أعلى أنفه في خطٍّ متعرِّج.. كان مثالَ القسْوَةِ والشراسة؛ وقد نفرْتُ منه لدى النظرة الأولى. كان يتسلى بتعذيبنا وتحطيمِ نفوسِنا، قبل أن يُعطيَه القائدُ إدواردس الفرصةَ لذلك، فما بالك الآن بعد هذه الملاحظة؟! من أجل هذا ما إن خرج القائدُ حتى قام بنفسه بفحص القيود؛ وبدأ بستيوارت، فأمره بأن يستلقيَ ويرفع يديه؛ وهنالك وضع قدمَه على صدره، وراح يشد بالقيد ليُضَيِّقَهُ، ثم شدّ بالسلاسل ليجرّب ثبت القيد، فخرج هذا من يدي ستيوارت سالخاً جلدَهما. وأوشك باركن أن ينقلب على ظهره؛ فانتصب ستيوارت، وقد بَرَّحَ به الألمُ واتقدت عيناه من الغضب، وصاح به: «يا لك من كلب قَذِر! بالله.. أيمكن لهذا أن يكون ضابطاً؟!» ولولا أن ابتعد باركن لكان ستيوارت قد لقنه درساً لا ينساه. قال باركن أعدْ ما قلتَه!

– لقد نعتُّك بالكلب القَذِر.. وأنت بالفعل كلبٌ قَذِرٌ!

– ستندم على هذا!.. صدِّقْني ستندم عليه مراراً قبل أن تُعَلَّقَ على المشنقة!. ثم أتى بقيِّم السلاح وطلب إليه أن يُضَيِّقَ القيودَ جميعاً.

وبما أنه سُمِح لنا بالكلام فقد رويتُ للرفاق ما دار بيني وبين الطبيب من حديث. وكان لنا في الكلام سلوى عن آلامِنا وهبوطِ معنوياتِنا.

بعد أيام أخرجونا من حُجرنا، فصعدنا سُلّماً، وقطعنا السطح السفلي، ثم انعطفنا سُلّماً أخرى. وأصبحنا في الهواء الطّلْق على السطح الأعلى. وقد أعشانا نورُ الشمسِ في البداية، فما عدنا نرى شيئاً مما أضاع لذتنا باجتلاء الفضاءِ الرَّحْبِ وتنشُّقِ الهواءِ النقيِّ. كان هناك القائد إدواردس؛ وقد أمرنا مدرِّبُ السلاح أن ندخلَ إلى سجننا الجديد؛ فصعدنا سلماً إلى جسر الحراسة الذي ابْتُنِيَ فوقَه السِّجن، ورحنا ندخل واحداً واحداً من كُوَّة يبلغ عرضها نحو ثماني عَشْرَةَ بوصةً، ونهبط إلى الداخل. كان هذا هو السجن الذي سنلازمه طيلة بقائنا على ظهر «الباندور»؛ وقد دعي «بالبيت المستدير»، ولكننا كنا نُطلق عليه في

أكثرِ الأحيانِ اسمَ « علبة الباندور ».

كان طوله إحدى عَشْرَةَ قدماً وعَرْضُه ثماني عَشْرَةَ. وكانت في جداره كُوّتان اتساع الواحدة تسعُ بوصاتٍ مربعةٍ؛ وقد وضعت عليهما قضبان غليظة من الحديد، مثلَ كوّةِ السقف.. من هذه الكوى كان يأتينا النورُ. وعلى أرضيّة الجسر كان يمتد صف من أربعةَ عشرَ وَتِداً من الحديد، فيها حلقات تُقْرَنُ بها سِيْقان الحديد. وكانت هذه السُّوْقُ الحديدية عبارةً عن أطواق، عرضُها ثلاثُ بوصات، وتتصل بسلاسلَ طول الواحدة اثنتا عَشْرَةَ بوصةً، وكان لقيد اليدين مفتاحٌ ولقيد الرجلين مفتاحٌ آخر؛ وكانت جميع المفاتيح في حوزة مدرِّبِ السلاح. وكما في السجن السابق كان في إمكاننا الوقوفُ والتحرُّكُ نصفَ خَطْوَةٍ في كل اتجاه. وكانت كُوَّةُ السقف تظلُّ مفتوحةً عندما يكون الطقس جميلاً. وفوق رؤوسنا كانت خطى الحراس موصولةَ الوَقْعِ ليلَ نهارَ، مما يحطِّمُ الأعصاب.

مثلُ هذا السِّجنِ الواسعِ لا يمكن أن يكونَ مخصصاً لنا.. فلا بد إذن من أن يكونوا واثقين من العثورِ على عددٍ آخرَ من بحارَة الباونتي. وبالفعل لم يمضِ يومان حتى ضُمَّ إلينا موريسون ونورمان وأليسون.

وروى لنا موريسون أنه ذهب بمركبه « تصميم » إلى « بابارا » ليأخذ ماكنتوش وهيلبرانت وميلوارد. وقد ظلَّ عِدَّةَ أيامٍ في الجزيرة لتمليح كمية من الأسماك. وفي اليوم الأخير، توجّه هؤلاء إلى الجبال ليأتوا بمزيد من الأغذية النباتية: وبقي هو وأليسون ونورمان في المركب. وحوالى الظهر أطبق عليهم زورقٌ مسلّحٌ كان يقوده توماس هيوارد، وهو يرتدي ملابس الضباط: وأضاف موريسون قائلاً عن هيوارد:

« إنه لم يكلِّفْ نفسَه التحدثَ إليّ؛ ولكنه أمرَ الرجال بأن يقيِّدوني؛ ثم بقي في مركبي مع معظم البحارة، وأُرسِلْنا نحن في الزورق ».

قال كولمان:

« يجب ألا يفوتَنا أنَّ السيد هيوارد هو في موقف دقيق! »

فقال ستيوارت محتدّاً:

« إن هذا الداعرَ الحقيرَ يعلم أننا أبرياءُ مثلُه! »

وتساءل موريسون:

« ألا تذكرون كيف كان يبكي عندما أمره

كريستيان أن يهبطَ إلى مركب بلاي؟»

فأجابه نورمان وهو يخاطب كولمان:

«أجل، يا كولمان!.. لقد طلب هو و«هاليت» أن يَظَلاّ على ظهر السفينة «باونتي»؛ وهذا لا يمكن أن يفعلَه أيُّ واحدٍ منا!»

ولم يمضِ طويل وقت حتى جيءَ بالآخرين، وعددُهم سبعةٌ، هم: ماكنتوش وهيلبرانت وبوركيت وميلوارد وسومر وموسبرات وبيرن؛ وبذلك لم يعدِ «البيتُ المستديرُ» واسعاً على مجتمعنا ذاك الصغيرِ. كان ثمانية يرقدون ورأسُهم إلى الجدار، من ناحية، ويرقد ستة، بالطريقة نفسها، من الناحية الأخرى؛ وكنت أنا في الزاوية الخلفية اليمنى، وعن يساري موسبرات. وقد حالفني الحظُّ بوجودي في هذا المكان؛ إذ لم يمضِ علينا ثلاثةُ أيامٍ في «البيت المستدير» حتى اكتشفتُ أن هناك عقدةً أمامي قد انفصلت عن ذلك الخشب الأخضر، وقد بدأ يجفّ في الشمس. فحاولتُ خلالَ عدة ليالٍ أن أدفعَها إلى الخارج فلم أُفْلِحْ؛ فساعدني على ذلك «جيمس غود»، الرجلُ الطيّبُ كاسمه (غود = الطيب) الذي كان يحمل إلينا الأكل، ودفعها من الخارج؛ وهكذا فُتِحَتْ أمامي

نافذةٌ على العالم الخارجيّ.

كنت من هذه النافذة أرى الزوارقَ الوطنيةَ رائحةً غاديةً؛ وقد رأيت عدةَ مراتٍ «بيغي»، زوجة ستيوارت، ووالدَها يحومان حولَ السفينةِ، ولكنني لم أُخْبرْ ستيوارت بذلك، حتى لا أزيدَه ألماً على ألم.

وذاتَ يومٍ هبط علينا القائدُ إدواردس ومعه مدرِّبُ السلاح. وما إن أَطَلَّ من أعلى السلم حتى استقبلته الروائحُ الكريهةُ. فقال للمدرب:

- لِمَ هذا المكان مُقْرِف بهذا الشكل؟

- إنها أوامرُ السيد باركن، يا سيدي!

- حسناً!.. نظِّفوه في الحال. وأَطْلِعْني على ذلك!

ولم تمضِ دقائقُ حتى حُمِلَتْ إلينا دلاءُ الماء. وسرعان ما رحنا ننظف سِجنَنا وأنفسَنا، حسب ما تسمح بذلك كميةُ الماءِ ووسائلُ التنظيف؛ ومع ذلك فقد انتعشنا، وراح بعضُنا يغني، فأَسْكَتَنا مدربُ السلاح. وجاء بعد ذلك الدكتور هاملتون، وفحصنا. وقد طلبنا منه أن تُقَدَّمَ إلينا الأغذيةُ الطازَجة، ما دامت السفينةُ راسيةً في تاهيتي. وقد عرفنا أن المعاملةَ غيرَ الإنسانية، التي نعامل

بها، إنما مصدرُها هو باركن، ولا يعلم بها لا القائدُ ولا الطبيبُ.

١٠. البحث عن الباونتي

في ذات صباح أُطْلِقَتْ أرجلُنا، أنا وستيوارت، ونُقِلْنَا إلى العيادة على السطح الأسفل. هناك وجدنا زوجتينا وطفلتينا. وطوقتني تيهاني بذراعيها وراحت تهمس في أذني قائلةً:

«اسمع، يا بايام؛ لا وقتَ أمامي للشكوى والتفجُّعِ .. إن أتوانوي موجود هنا ومعه ثلاثُمئةِ رجلٍ من «توتيرا»، من خِيرة المحاربين. لقد جاؤوا في مجموعاتٍ مؤلَّفةٍ من خمسة رجالٍ أو ستة؛ وهم مقبلون من طَرَفَيِ الشاطىء، وسيهاجمون الفرقاطة ليلاً، لأن المدافعَ لن تستطيعَ ردَّهم في الظلام. وقد تأخَّر الهجومُ خوفَ أن يُجْهِزَ الجنودُ عليكم قبلَ تحريرِكم. إن «أتوانوي» يريد أن يعرف إن كنتم في البيت الجديد الذي بُنِيَ على ظهر السفينة، كما يريد أن يعرفَ الطريقةَ التي تُحْرَسُون بها، وهل أنتم مُقَيَّدون أم لا!»

لقد طغت عليّ فرحةُ لقائي بزوجتي وابنتي، فلبثتُ صامتاً، لا أستطيع أن أَنْبِسَ بكلمةٍ!.. قالت تيهاني:

«أجبْ بسرعة!»

فقلت لها ألا أملَ في نجاتنا، وأنَّ الرجالَ سيُقتَلون عن آخرهم، لأن القائدَ إدواردس يتوقّعُ مثلَ هذا الهجوم. وقد قلت ذلك لأُقْنعَها بعدم القيام بذلك العمل. ولم أستطعْ أن أشرحَ لتيهاني الوضعَ، لأننا أخفينا أمرَ التمردِ عن أهل تاهيتي، منذ البداية.

وكانت بيغي تتحدّثُ في الموضوع نفسِه إلى ستيوارت. ولكن لما علمتِ المرأتان ألاّ سبيلَ إلى الاستيلاء على السفينة الحربية، وتخليص زوجيهما انفجر ألمُهما المبرِّحُ، فأصابت بيغي نوبةٌ من البكاء حتى لم يعد في الإمكان تهدئتُها. أما ألمي وألمُ تيهاني فقد كان فوق البكاء. هنالك فتح ستيوارت البابَ، وقال للحارس إننا جاهزان. وأسندتْ تيهاني رفيقتَها، ومضتا.

وأُخِذْتُ إلى حجرة الدكتور هاملتون، فشكرتُه باسمي واسمِ ستيوارت على تلك اللحظاتِ التي أتاحها لنا. وقد أعرب عن إعجابه بشخصية تيهاني. وأخبرني أنها كانت تأتي كلَّ يومٍ في الشهر السابق؛ وقد حرّكتِ الأرضَ والسماءَ لتراني؛ وكذلك فعلتْ بيغي. وقال إن القائدَ

إدواردس رفض، حتى اليوم السابق، كافةَ الطلباتِ التي تَقَدَّمَ بها أهلُ تاهيتي لرؤية السجناء؛ وأضاف:

«إنه يخشى أن يقومَ التاهيتيون بعمل ما لإنقاذكم!»

قلت:

«إنه على حقٍّ أن يخشى ذلك، يا سيدي!»

ثم رُحتُ أسردُ على مسامعه ما قالته لي زوجتي؛ فقال:

«إنه لم يخطُرْ لنا هذا على الإطلاق!.. لقد أحسنت بإخباري، يا بني، لأن مثلَ هذا الهجومِ لا بدَّ أن يؤدّيَ إلى موتِ العَشَراتِ بل المئاتِ من الأهالي!»

في اليوم التالي تحرّكتِ السفينةُ لمواصلة التفتيش عن الباونتي، التي لم يستطعِ القائدُ إدواردس أن يعرف أيَّ شيءٍ عن مكان وجودها. وكان الطبيبُ قد حمل إليّ قاموسي، وأمر النجّارَ أن يصنعَ لي مِنضدةً صغيرةً، صرت أضعُها فوق ساقيَّ الممدودتين وأواصلُ العملَ في القاموس، الذي أصبح يعاونني فيه الرفاق. والواقع أن القاموسَ أدّى إلينا خدمةً جليلةً، إذ شَغَلَنا عن أفكارنا السوداء.

كان قد مضى علينا عدةُ أيامٍ في البحر عندما علمْنا أن مركبَ موريسون «تصميم» يرافقنا بعد أن سُلِّح

وعُيِّن لقيادته قائدُ المنوراتِ بالفرقاطة «باندور»، السيد أوليفر، يعاونه طَاقَمٌ مؤلّفٌ من طالبِ بحريةٍ وعريفٍ بحريّ وستةٍ من الملاحين. وقد بدأ فصل الأمطار، وصرنا نواجه العواصفَ الشديدةَ. كما أن خشبَ «علبةِ الباندور»، كان قد تشقّق، فأصبحت مياهُ الأمطار تتسرَّبُ إلينا من شقوقه.

ولم نكن نعرف عن مسارِ السفينةِ سوى ما يقوله لنا «جيمس غود»، مصدرُنا الإعلاميُّ الوحيدُ، وما يمكن لي رؤيتُه والتكهُّنُ به عَبْرَ ثُقْبِ العقده في الجدار الخشبي بجانبي. قال جيمس غود إن السفينةَ سائرةٌ نحوَ الغربِ في خطٍّ متعرِّجٍ، وإن القائد إدواردس يسأل عن الباونتي كلما مر على جزيرة.

كنت أعدُّ الأيامَ.. فقد غادرنا تاهيتي في التاسع من أيّارَ عامَ ١٧٩١، وفي التاسعَ عَشَرَ منه وصلْنا إلى جزيرةٍ عرفنا، في الحال، أنها «إيتوتاكي»، التي اكتشفها القائدُ بلاي قُبَيْلَ التمرُّدِ. وكان من رأيي ورأي موريسون أن كريستيان لا يمكن أن ينزلَ جزيرةً معروفةً، خاصةً إذا كان بلاي قد زارها. وفي اليوم التالي حمل إلينا جيمس غود خبراً مثيراً وهو أنه عُثِر على «الجزء العَرْضيّ للصاري الخلفيّ في الباونتي»؛ وهذه الكلماتُ مرسومةٌ

عليه. وقد قدّروا أن هذا الصاريَ حملته الأمواجُ من مسافاتٍ بعيدةٍ.

خلالَ الشهرين التاليين تنقّلتِ «الباندور» شمالاً وجنوباً بين جزرِ «الاتحادِ»، و«البحّارةِ» و«أرخبيلِ الأصدقاء»، بحثاً عن الباونتي. وفي ليل ٢١ حزيران فَقَدتْ أَثَرَ المركب «تصميم» في أثناءِ عاصفةٍ هوجاءَ. فاتجهت إلى «ناموكا»، إحدى «جزر الأصدقاء»، التي كانت الباونتي قد توقّفتْ عندها للتموّن، والتي اتفق إدواردس مع قائد «تصميم» على أن يكونَ اللقاءُ عندها، فيما لو أضاعت السفينتان بعضَهما. ولكن حتى الثاني من آبَ لم يأتِ المركبُ، فاعتُبِر مفقوداً. وقرر القائدُ إدواردس العودةَ إلى إنكلترا دونَ إضاعةِ مزيدٍ من الوقت.

كنا في طريقنا إلى تيمور وَسَطَ محيطٍ لا حدودَ له، تنتشر فيه جزرٌ، أغلبُها يجهلُه الرجلُ الأبيض. ووصلنا إلى الطرفِ الشماليِّ للحاجزِ الكبيرِ الذي يمتد على طولِ الساحلِ لأسترالية. وهذه المِنْطَقَةُ هي من أخطرِ المناطقِ. فقد كنا نسير في خطٍّ متعرِّجٍ، خوفَ الاصطدامِ بالصخور، في الأماكنِ الضّحْلَةِ. وكان الرجالُ يعملون طُولَ النهار في سَبْرِ الأعماق بواسطة «المِسْبَارِ».

وكان يومُ الثامنِ والعشرين من آبَ يوماً رهيباً من الركود الذي تتخلّله زوابعُ في غاية العنف. لم نكنْ نرى تماماً خطورةَ الموقفِ، أنا من خلالِ «نافذتي» والرفاقُ من خلالِ بعضِ الشقوق؛ ولكنَّ الأوامرَ التي كانت تصل إلى مسامعنا كانت تُنبِئُ بخطرٍ داهِمٍ. وعندَ هبوطِ الظلامِ اصطدمتِ السفينةُ بالصخور، وقُذِف بجميع سكان «البيت المستدير» إلى آخرِ سلاسلِهم. ولم نكدْ نَعْتَدِلُ حتى وقع اصطدامٌ أشدُّ بمراحلَ، حتى خُيِّل إلينا أن الصواريَ قد تحطَّمَتْ. وكان عصفُ الرياحِ يَحُولُ دونَ سَمَاعِنا الأوامرَ بوضوح. ولكننا فَهِمْنَا أن السفينةَ قد عُطِبَتْ، وأن المياهَ قد أصبحت، في قعرها، على ارتفاعِ ثلاثِ أقدامٍ.

في الساعة العاشرة هدأتِ الزوبعةُ فسمعنا الأمر بإلقاء المدافع في البحر. وكان الماءُ يتدفق بسرعة إلى داخل السفينة. فكان جميعُ الرجال، باستثناء السجناء يشتركون في النَزْحِ والضخّ؛ ولذا كان موقفُ القائد منا غيرَ معقولٍ ولا مقبول؛ إذ لم يكن في مقدورنا أن نهربَ؛ ومع ذلك فقد عزّز الحراسةَ علينا. ومع خيوط الفجر فهمنا أن النهايةَ لم تعد تفصلُنا عنها ساعاتٌ بل دقائقُ. فقد ارتفع مؤخَّرُ السفينةِ كثيراً بحيث لم يعد من الممكن الوقوفُ على

السطح. كنا نصرخ ونستجير، ويدقُّ بعضُنا بالسلاسل. وبدأت المياه تدخل إلى سجننا أو كُنَّا قَابَ قوسين أو أدنى منَ الغَرَقِ. وعندما أطلقونا كانت المياهُ قد غمرتِ السفينةَ حتى الصاري الكبير. وقد رأيتُ القائدَ إدواردس يسبح نحوَ المراكب التي أُنْزِلَتْ في البحر. ومن شدَّةِ الاضطرابِ نسي قَيِّمُ السلاحِ أن يُطْلِقَ أيدي هيلبرانت وبوركيت بعد أن أطلق أرجلَهما. واستطعتُ أن أسبح بعيداً قبل أن تبتلعني المياهُ عندما كان مؤخَّرُ السفينةِ يغوص في اللُّجَّةِ.

وتجمع الناجون في جزيرةٍ صغيرةٍ طولُها ثلاثون خُطوةً وعَرضُها عشرون، كما تجمَّعَتْ حولَها المراكبُ؛ وذلك بعد عملية الإنقاذ التي دامت حتى الظهر. وقد هَلَكَ في هذه الكارثة ثلاثةٌ من رجال «الباندور» وأربعةٌ من الأسرى، هم: ستيوارت وسومر وهيلبرانت وسكينر. ولا تَسَلْ عن حزني على صديقي ستيوارت، فقد كان موتَه أفدحَ المصائبِ التي حاقت بي، باستثناء افتراقي عن زوجتي وطفلتي.

وأَمَرَ إدواردس أن تُنْصَبَ خيامٌ بواسطة القلوع للضباط والبحارة؛ ولكنه رفض أن ننصب خيمةً لنا، وتُرِكْنا في مهبِّ الريح. ولما كان من غير الممكن أن نهرُبَ

فقد تُرِكْنا دونَ حراسةٍ أثناءَ النهارِ؛ أما في الليل فقد كان يتولى أَمْرَنا حارسان. كنا على الرمال الساخنة لا نستطيع حَرَاكاً، وكانت الشمسُ تلسعُ أجسادَنا المَكْسُوَّةَ بالثآليل، والعطشُ يُلهبُ أحشاءَنا.

وفي اليوم التالي أُرْسِلَ مركبٌ إلى المكان الذي غرقتْ فيه السفينةُ، علَّه يعثر على شيء؛ فوجد قطعةً من الصاري الكبير، وقد تعلقتْ بها هِرَّةٌ. ولكنَّ هذه الهِرَّةَ المسكينةَ لم تُنْقَذْ إلا لتكونَ طعاماً للبحارة، الذين شَوَوْها وتقاسمُوها؛ أما جلدُها فقد استخدم كغطاءِ رأسٍ لأحد الضباط، الذي فقد قبعتَه في الحادث:

في ٣١ آب، وبعد انتهاء الإصلاحات الضرورية جمع القائد الكلَّ ليُعطيَ تعليماتِه. لم يكن واحدٌ بينَ أولئك الرجالِ الهزيلي الأجسامِ كاسياً تماماً. كان الجميعُ، فيما عدا ثلاثةً، عراةَ الجذوع؛ وكان القائد بالقميص، والسِّرْوَال، ودونَ جواربَ. أما الطبيبُ فقد كان مثلَه، ولكنْ بدون حذاء؛ غير أنَّه أنقذ صُندوقَ الأدوية؛ وهمس في أُذُني أنه أنقذ مخطوطي مع أدويته.

وتحدَّثَ القائدُ فقال إن أمامنا سفراً طويلاً؛ إذ إنَّ أقربَ مكان يمكن الحصولُ فيه على مساعدة هو المُنْشَآتُ الهولندية في «تيمور» التي تبعد ما بينَ خمسمئة فرسخٍ

وستّمئة. ونبّه إلى أن مخصّصاتِ الطعام ستكون ضئيلةً، كما أكّد على وجوب الطاعةِ المطْلَقةِ. ثم وُزِّعْنا على المراكب؛ فكنت أنا وموريسون وأليسون في مركب القائد.

١١. أيامٌ بلا نهايةٍ

أُجلِسنا في الجهة الأمامية منَ القاربِ، الذي كان يُثقِله أربعةٌ وعشرون راكباً. ولم يكن في استطاعة إدواردس أن يُبعدَنا عن بحارته، لضيق المكان، فوضع بيننا وبينهم هيوارد وريتشارد حتى لا تسري عدوى التمرد إلَيْهم. وكان هيوارد منزعجاً من الجلوس إلى جانبنا. كنا عندما تهدأ الريحُ نعمل في التجذيف كغيرنا من بحارة «الباندور»؛ ولكنّ الجميعَ كانوا يذكّروننا باستمرار أننا قراصنةٌ، وأننا ذاهبون إلى المِشنقة.

عند الظهر كان يُوزَّعُ علينا المقرَّرُ من الطعام والشراب. وقد فَلَقَ إدواردس صَدَفَةً وجعل منها كفَّتَيْ ميزان، وكان يستخدِمُ رصاصة البندقية كعيار. أما الماء والنبيذ فقد كان يستخدِمُ في تقسيمه كأساً صغيرةً. وكان نصيبُنا كأسين من هذا الحجم: وكان الواحد منا مضطراً إلى تناول كأسه جُرعةً واحدةً لكي يُتيحَ لمن بعدَه أن

يأخذَ نصيبَه. وقد كان العطشُ أخطرَ ما تعرضتْ إليه المجموعةُ، خاصةً وأن الشمسَ المَدارِيَّةَ الحادَّةَ كانت تُلهِبُ أجسادَنا العاريةَ ورؤوسَنا المكشوفةَ. كنا كلُّنا عِطَاشٌ ولكنَّ بعضَنا كانوا أكثرَ تأثراً وأشدَّ معاناةً، مما جعلهم لا يفكرون في الآخرين. وقد حدث أن أحدَ هؤلاء حاول، بعد أن كرع نصيبَه من الماء، أن يستوليَ على نصيب رفيقٍ له، وأمسكَ كلٌّ منهما بالكأس فسال ماؤها الثمين؛ فما كان من بولنغ، أحدِ العرفاءِ، إلا أنْ ضَرَبَ الرجل بزجاجة ملآنة على رأسه فقتله. كان ذلك عقاباً مستحقّاً في الظرف الذي حدث فيه. فوجه إدواردس الكلامَ إلى رجاله قائلاً:

«إنني أريد أن أوصلكم جميعاً سالمين إلى تيمور.. ولكن إذا وقع حادثٌ من هذا النوع فإن المسؤولَ عنه سيعدم رمياً بالرصاص. ليذكرْ كلٌّ منكم أن آلامَه مماثلةٌ لآلام الآخرين.. في الغد سنكون قريبين من الساحل الأسترالي، ولا بد أن نجد ماء في مكان ما!»

في صباح اليوم التالي كنا عند الطرف الشمالي لساحل أستراليا. وظَلَلْنا عدةَ ساعاتٍ نسير قريباً من الشاطىء الذي لم يكنْ فيه شيءٌ يَدُلُّ على وجودِ حياةٍ بشريةٍ أو حيوانيةٍ. وأخيراً رأينا وادياً مخضوضراً، فقدّرنا أن

يكونَ فيه ماءٌ. وهكذا كان.. فأقبلْنا على الينْبُوعِ نَعُبُّ منه عَبّاً حتى امتلأْنا واستلقى الرجالُ المحطَّمُون في الظلال، وما لبثوا أن غرقوا في النوم، من طول ما كابدوا. غير أن الزورقين الخلفيّين فاتهما الجُوْنُ الذي نزلنا فيه؛ ولم نستطع أن نُلْفِتَ أنظارَ راكبيهما، لأننا كنا محجوبين تماماً؛ فَاضْطُرَّ الضباطُ أن يضربوا البحارة النائمين حتى يحملوهم على النهوض، كيما نلحقَ بالزورقين. ثم مضينا بعد أن ملأنا برميلاً صغيراً وبضعةَ أباريقِ شايٍ وزجاجتين، وحتى «جَزْمَةً» ذاتَ عُنُقٍ طويلٍ. غير أننا لم نتمكَّنْ من اللَحَاقِ بالزورقين إلا بعد الظهر. فلم يعد في الإمكان الرجوعُ، خاصةً وأنَّ الرياحَ كانت معاكسةً.

وبقينا أياماً عديدة نعاني الجوعَ والعطشَ وهياجَ البحرِ. وكان المتقدمون في السِّن يقاسون بالطبع أكثَر من الشبان. فقد بادل فتى من طلاب البحرية نصيبَه ليومين من الماء مقابل الخبز. وقد بلغ العطشُ بعددٍ من البحارة أن شربوا بولَهم؛ وهؤلاء ماتوا جميعاً قبلَ نهايةِ الرِّحلة.

وفي صباح ١٣ أيلول ظهرتْ لنا اليابسةُ. وكان إدواردس قد أعطى قادةَ الزوارقِ القياسَ الدقيقَ لموقع جزيرة «تيمور». وعندما أعلن «زيكاردس» أننا فعلاً

أمام جزيرة «تيمور»، هتف الجميعُ: «هورّاه»، تعبيراً عن فرحتِهم العارمة. لقد كان الكلُّ في حالة يُرثى لها. وقد سكنتِ الرياحُ بعد الظهر، وراح الكلُّ يجذِّفون: ولما كان التقدم في غاية البطء، لم يَعُدْ في إمكان المسنين أن ينتظروا أكثرَ من ذلك، فانبطحوا في قعر الزوارق وراحوا يبكون ويستجيرون. ولم نجد ماء إلا بعد يومين، ولو تأخرنا يوماً آخر لهلكنا جميعاً. وفي منتصف ليلِ الخامسَ عَشَرَ من أيلولَ كانَ زورقُنا ينساب بين السفن تحت القلعة القائمة في خليج «كوبانغ».

خلال إقامتنا في كوبانغ تمتع القائدُ إدواردس ورجالُه بضيافة الشركة الهولندية «للهند الشرقية». أما نحن الأسرى فقد استمتعنا بنوع آخر من الضيافة: وُضِعنا في حجرة توقيف في القلعة، لا يُنيرُها سوى نافذتين صغيرتين قربَ السقفِ. وليس على أرضها الحجرية أي شيء. وقد تولى أمرَنا من جديد باركن، الذي حَرِصَ على أن يحرمَنا من كلِّ ما من شأنه أن يخفِّفَ عنا العذابَ. ولم يَزُرْنا إدواردس طَوَالَ تلك المدَّةِ؛ ولكن الدكتور هاملتون لم ينسَنا؛ فقد جاءنا بعد نهاية الأسبوع الأول، لأنه كان خلال ذلك الأسبوع مشغولاً بمعالجة مرضى «الباندور» الذين مات عددٌ منهم بعد بضعةِ أيامٍ من وصولنا.

في السادس من تشرينَ الأول نقلتنا سفنة « رامبانغ » التابعة لشركة « الهند الشرقية الهولندية » إلى « بتافيا » في جزيرة « جادة ». وفي الثلاثين من هذا الشهرِ وصلنا إلى ميناء « سامارانغ ». وكم كان دَهَشُنا وفرحُنا عظيمين عندما رأينا في هذا الميناء مركبَ « تصميم » الصغيرَ، الذي فَقَدْناهُ منذ أربعةِ أشهرٍ. وقد عمد القائدُ إدواردس إلى بيع هذا المركب، ثم وزَّع ثمنَه على بحارة « الباندور » ليشتروا ملابسَ لأنفسِهم. وقد حزَّ هذا العملُ في قلب موريسون ورفاقِه الأسرى، الذين تحملوا المشاقّ في بنائه، ومع ذلك لم ينالوا شِلْناً واحداً من ثمنه. ولكن سَرَّهُم، على أيِّ حالٍ، أنهم تمكّنوا من بناء مركبٍ صامدٍ كما لو كانوا من خيرة الاختصاصيين في بناء السفن.

بعد إصلاح السفينة « رامبانغ » في ميناء سامارانغ، نقلتْنا إلى « بتافيا »، حيث قسَّمَنا القائدُ إلى أربع مجموعات وُزِّعت على أربعِ سفنٍ هولندية، أوصلتنا إلى رأس الرجاء الصالح في ١٥ كانونَ الثاني عام ١٧٩٢. وهناك وجدنا السفينةَ الملكيةَ غورغون على أُهْبَةِ السفرِ إلى إنكلترا؛ فَنُقِلَ الجميعُ إليها.

وقد عاملنا قائدُ هذه السفينةِ، السيد غاردنر، معاملةً

إنسانيةً: فقُيِّدنا في رجل واحدة، مع بقاء الغُلِّ في أيدينا، وفُرِشَ لنا على الأرض قُماشٌ قديمٌ لننامَ عليه، وتلك رفاهيةٌ لم نذقْها منذ اثني عَشَرَ شهراً؛ وإلى جانب ذلك كنا نخرج كل يوم إلى الظهر لنبقى بعض الوقت في الهواءِ الطَّلْقِ. وكانت هذه المعاملةُ تَغيظُ إدواردس إلى أبعدِ حدّ؛ ولكنه لم يكن قادراً على الاحتجاج لأنه ليس على ظهر سفينته.

وفي ١٩ حزيران وصلنا إلى « سبيتهيد »؛ وقبل هبوط الظلام كانت السفينةُ غورغون قد ألقتْ مراسيَها في ميناء « بورتسموت »، الذي أقلعت منه السفينةُ باونتي منذ أربعِ سنوات وستةِ أشهرٍ خلَتْ. ومن هذه المدة قضينا خمسةَ عَشَرَ شهراً مسجونين.

١٢ . سير جوزيف بنكس

كان ميناء بورتسموت مزدَحِماً بالسفنِ المختلفةِ؛ ومن بين هذه السفنِ السفينةُ الحربيةُ « هيكتور » التي نُقِلْنا إليها في ٢١ حزيرانَ عامَ ١٧٩٢ لننتظر محاكمتَنا أمامَ المحكمةِ العسكريةِ. وقد أصبحنا الآن نُعامَل على أساس أننا مُتّهَمُون ينتظرون نتيجةَ الحكم عليهم؛ ولهذا رُفِعَتْ

عنا القيودُ والأغلالُ، وصارتْ تُقدَّمُ إلينا وَجَبَاتٌ كافيةٌ من الطعام.

ولم يمضِ على وجودنا ساعةٌ على ظهر السفينة «هيكتور» حتى استُدعيتُ إلى حجرة قبطانها، القائدِ «مونتاغيو». ودعاني للجلوس وأخذ يتحدث إليّ في غير موضوع التمرد. ثم فتح دُرْجَ مكتبه، وأخرج منه مجموعةً من الرسائل، وناولني إياها قائلاً: «في استطاعتك، يا سيد بايام، أن تبقى هنا الوقتَ الذي تريد لقراءة رسائلك؛ وعندما تنتهي ما عليك إلا أن تفتحَ البابَ وتخبرَ بذلك حارسَك!»

وعندما أصبحت وحدي فتحت الظرف فوجدتُ رسالةً من سير جوزيف بنكس مُؤرَّخةً منذ بضعةِ أيام؛ وفيها ينبئني بوفاة والدتي قبل ذلك بستةِ أسابيعَ. وكانت هناك رسالةٌ من والدتي كتبتْها لي قبلَ وفاتِها بليلةٍ واحدةٍ. لقد كانت مؤمنةً ببراءتي، ولكنَّ نبأَ التمردِ قد أصابها بصدمةٍ عنيفةٍ، من حيث إنَّ هذه التهمةَ تلطِّخُ اسمَ أسرتِنا؛ وقد أخبرتْني خادمتُنا «ثكر»، فيما بعد، أن صِحَّةَ والدتي بدأتْ تَسُوءُ منذ أن تسلَّمَتْ رسالةَ بلاي.

وبعد أيام زارني سير جوزيف بنكس، ذلك الرجلُ

نشَّهُمُ الذي، رغمَ مشاغلِه الكثيرةِ بوصفِه رئيسَ «الجمعيةِ الملكية»، كان يستخدم كلَّ وقتِه لكي يضمن لنا محاكمةً عادلةً. وقد استطاع أن يُخرجَني من حالةِ اليأسِ الذي استولى عليّ، فحدَّثني عن قاموسي المخطوطِ؛ فأخبرتُه بأن الدكتور هاملتون قد أنقذه من الغرق، وأنه بقي معه؛ وهو لم يصل بعد إلى إنكلترا.. قال:

«رائعٌ، يا بايام، رائع!.. على أيِّ حال أفادتْ رحلة الباونتي في شيء ما.. سأقابل الدكتور هاملتون فورَ عودتِه!»

وأخبرني أن بلاي أُرسِلَ مرةً أخرى إلى تاهيتي ليحملَ غِراساً من شجرة الخبز. وكان هذا النبأُ بمثابة صدمةٍ لي، لأنني لو استطعتُ مواجهتَه لأقنعتُه ببراءتي؛ أما الآن فليس أمامَ المحكمةِ سوى شهادتِه المكتوبةِ، وهي تُدينني.. قال سير جوزيف:

«لا تفكّرْ في هذا، يا بايام!.. إنني مؤمنٌ ببراءتك، ولكن أرجو أن تروِيَ لي ما حدث بالضبط!»

فَرُحْتُ أروي له القصةَ بكاملها، كما رويتُها للدكتور هاملتون. فلما انتهيتُ قال لي:

«بايام! علينا أن نواجهَ الوقائعَ كما هي: أنت في

موقف خَطِر! فالسيد نلسون، الذي كان يعرف رغبتَك في مرافقة بلاي، قد مات، وكذلك نورتون، الذي كان سيؤيِّدُ روايتَك؛ وعلى هذا فإن خطَّكَ في النجاة يتوقف على شهادة شخصٍ واحد، هو صديقك روبرت تنكلر..

– لقد عاد سالماً إلى إنكلترا!

– هذا صحيح.. ولكن أين هو الآن؟.. أنت تقول إنه شقيقُ زوجةِ فراير، القائدِ الثاني للباونتي؟

– نعم!

– إذن علي أن أعرف مكانَ فراير من الأميرالية!

كان الأسرى الآخرون ينتظرون نتيجةَ لقائي لسير جوزيف، فهو أولُ زائرٍ يزورنا؛ إذ لم يكنْ لنا حقٌّ أن نتحدثَ إلا إلى الرسميين الذين تصرّح لهم بذلك المحكمةُ العسكريةُ؛ ولكن نظراً لما كان يتمتع به سير جوزيف من مكانة رفيعة، ولاهتمامه برحلة الباونتي، فقد تَمَّتْ هذه المقابلةُ. وسردْتُ على زملائي ما دار بيني وبين سير جوزيف من حديث، وأخبرتُهم أنَّه تقرَّرَ، بفضله، أن تُقَدَّمَ إلينا ملابسُ محترَمَةٌ، للمثولِ بها أمامَ المحكمة؛ وقد استقبلوا النبأَ بسرورٍ ظاهرٍ.

في اليوم السادس بعد لقائنا تسلَّمْتُ خطاباً من سير

جوزيف يخبرني فيه أنه، فوَر عودتِه إلى لندن، توجّه إلى الأميرالية للسؤال عن فراير، فعلم أنَّ هذا الأخيرَ موجودٌ في لندن، وهو ينتظر استدعاءه إلى المحكمة كشاهد؛ وفي الحال طلبه وسأله عن تنكلر، فقال إنه يعمل كمعاون على السفينةِ «كاريب ميد» التجاريةِ التابعةِ لشركة الهند الغربية! وقد عاد منذ سنة إلى إنكلترا ثم قام برحلة ثانية. ومنذ ثلاثة أشهر تلقّى فراير رسالةً تُنبِئُهُ بأن السفينةَ «كاريب ميد» قد فُقِدَتْ بمن عليها قرب جزيرة «كوبا».

ويُضيف سير جوزيف أنَّ لي، رغمَ فُقْداني الشاهدَ الوحيدَ، أملاً في النجاة؛ لأنَّ فراير مقتنعٌ بأنني لم يكن لي أيُّ دورٍ في التمرُّد؛ وقد قال كلاماً طيِّباً في حقّي، وكذلك كول وبورسيل وبيكوفر، الذين اتصل بهم سير جوزيف.

وأخبرني من ناحية أخرى أن صديقَه السيد غراهام، الذي يرافع في المحكمة العسكرية، قد أبدى استعدادَه للدفاع عني؛ وهو أكبرُ محامٍ في إنكلترا؛ وقد كان خلالَ الاثنتي عَشْرَةَ سنةً الماضيةَ سكرتيراً لعدد من الأميرالات في «تير نوف».

كان قضاةُ المحكمةِ، كما علمتُ من سير جوريف، لا

يُحبُّون المحامين؛ ولهذا خفّفَ عني أن يكونَ محاميَّ بحاراً في الوقتِ نفسِه.

في الأسبوع التالي زارنا السيد غراهام، ولَبِثَ عندنا وقتاً طويلاً ليُجيبَ عن جميع الأسئلة التي توجَّه إليه. وكان أول السائلين موريسون، الذي أراد أن يعرفَ نصَّ المادةِ التي تنطبق علينا في القانون فأجاب بأنها المادة ١٩ من القانون الحربي وهي تَنُصُّ على أنَّ «كلَّ شخصٍ، عاملٍ في الأُسْطول أو تابعٍ له، يقوم أو يحاول القيامَ باعتصاب لمتمردين، مهما كان سببُه، وكلَّ شخصٍ يكون قد اشترك فيه وثَبَتَ عليه ذلك تُنَفَّذُ فيه عقوبةُ الإعدام بحكم من المحكمة العسكرية». قال موريسون:

-ألا تأخذ المحكمةُ الظروفَ المخفِّفَة بعين الاعتبار؟

- كلا! إن المحكمةَ أمامَ أمرين لا ثالث لهما: فهي إمّا أن تبرِّىء وإمّا أن تُدينَ وتحكمَ بالإعدام!

- ولكن افرضْ، يا سيدي، أن تمرُّداً حدث على سفينة، وكان قسمٌ من رجالها - كما هي الحال بالنسبة إلينا - خاليَ الذهن من النيّةِ المبيَّتَةِ للاستيلاء على السفينة ولم يشاركْ مطلقاً في هذه الحركة؟

- إذا بقي هذا النَّفَر على ظهر السفينة يُعْتَبَرُ كباقي

المتمردين سَوَاءً بِسَوَاء!.. إن قانونَنا الحربيَّ قاسٍ جداً في هذه الناحية؛ فهو يعامل المحايدَ كالمجرم الذي تطاول على قائده.

١٣ . السفينة الملكية ديوك

في صبيحة الثاني عَشَرَ من أيلول تلقّى الساجينُ العَشَرَةُ، الموجودون في السفينـــة «هيكتور»، أمراً بالاستعداد للمثول أمامَ المحكمةِ العسكريةِ على ظهر السفينة الملكية «ديوك». وكانت هذه السفينةُ الحربيةُ راسيةً على بُعْدِ رُبْعِ ميلٍ من «الهيكتور». وقُبَيْلَ الساعةِ الثامنةِ رأينا زورقاً ينفصل من السفينة الكبيرة، وفيه مجموعةُ حرسٍ من قنّاصة البحرية بالملابس الرسمية الخاصّة. وفي اللحظة نفسها أطلقتِ «الديوك» مِدْفَعاً: لقد دَنَتْ ساعتُنا.

كانت المحكمةُ ستُعْقَدُ في الحجرة الكبرى التي تمتدّ على عَرْضِ السفينةِ «ديوك»، وقد رأينا ظهرَ السفينةِ مزدحماً بكبار الضباط البحريين الذين قدموا من مختلفِ السفن لحضور المحاكمة. وكان هناك بعضُ كبار المدنيين ومنهم سير جوزيف بنكس. وكان يقف في ناحيةٍ بحارةُ السفينة «باونتي»: فراير وكول وبورسيل وبيكوفر. كما كان مع

الجمع ضباطُ الباندور، وعلى رأسهم إدواردس وتابعُه باركن.

فُتِحَ البابُ الكبيرُ ودخل المستمعون، ثم تقدَّمْنا بين صفين من الحرس يتقدَّمُنا نقيبٌ بحريٌّ مجرِّداً سيفَه. وفي الساعة التاسعة دخل القضاةُ. وعددُهم اثنا عَشَرَ. وعلى وجوههم البرودُ والقسوةُ، مما جعل قلبي يكاد يتوقف عن الخفقان.

وتُلِيَتْ أسماؤنا، فوقفنا نستمع إلى قرار الاتهام وهو بالغ الطول، يسرُد قصةَ السفينة باونتي من مبدأ قيامِها حتى وقوع التمرد. وبعدَه تُلِيَ تقريرُ القائدِ بلاي الذي كان في غاية الأهمية، وخاصة بالنسبة إليّ. وقد وصف بلاي التمردَ، ونوّه بأن التآمر قد تمَّ بصفةٍ سريةٍ تماماً، ولكنه في الليلةِ السابقةِ رأى زعيم القراصنة، فليتشر كريستيان، واقفاً مع رودجر بايام، أحدِ الطلاب البحريين، وهما يتحدّثان في الظلام؛ وسمع بايام يقول لكريستيان وهو يشدُّ على يده: «تستطيع أن تعتمد عليّ».

وعند انتهاء التقرير رأيتُ كثيراً من العيون تتجه نحوي. وقد عَجِبْتُ كيف أن بلاي لم يذكرْ أن كولمان ونورمان وماكنتوش أرادوا أن ينزلوا معه في المركب،

السفينة الملكة ديول

ولكن المتمردين منعوهم من ذلك لحاجة السفينة إليهم.

وانتقلت المحكمة بعد ذلك إلى سماع الشهود، فكان أولُهم فراير، الذي روى قصةَ العصيان، وبيّن أن القائد بلاي طلب إليه أن يبقى على ظهر «الباونتي» ولكن كريستيان رفض رفضاً قاطعاً، فرجاه فراير أن يسمحَ لشقيقِ زوجته تنكلر أن يَصْحَبَه أيضاً، فتمنّع أولاً ثم وافق. وذكر أن الذين رآهم يحملون السلاح هم: توماس بوركيت، أحد المساجين، وجونْ سومر وإسحق مارتن وماتيو كنتال وجون ميلوارد. وقال إن جوزيف كولمان وتوماس ماكنتوش أرادا أن ينزلا في المركب، ولكن كريستيان منعهما. ثم طرحت المحكمةُ عليه بعضَ الأسئلة بخصوص المساجين؛ أما بالنسبة إليّ فقد أكَّدَ أنني لم أشتركْ مع كريستيان.

وبعد أن استمعتِ المحكمةُ إلى كول وألقت عليه الأسئلةَ بخصوص الذين كانوا يحملون السلاح رُفِعَتِ الجلسةُ. وأُعِدْنا إلى السفينة هيكتور. ولم يلبثِ السيد غراهام أن أقبل وهو يحمل إليّ كلمة من سير جوزيف فحواها أنني قد رأيت الأسوأ حتى الآن، وعلي أن احتفظ بشجاعتي؛ قد أحدث فراير وكول تأثير طيباً بالنسبة إليّ. وتحدث إلي السيد غراهام نحوَ نصفِ ساعةٍ

فتناول تفاصيلَ الجلسة، ونبَّهَني إلى الأسئلة التي ينبغي أن أُلقيها على باقي الشهود؛ ولكنه اعتذر عن إبداءِ رأيه في احتمال نجاتي.

في التاسعة من صباحِ اليومِ التالي عُقدَتِ الجلسةُ الثانيةُ، وحضرها عددٌ أوفر من المستمعين؛ وفيها أدلى بيكوفر وبورسيل بشهادتيهما. وكانت شهادةُ بورسيل في مصلحتي. وفي اليوم الثالث كان دورُ هيوارد، الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر. وقد حاول، بنذالةٍ مدهشةٍ، أن يحملَ القضاة على الاعتقاد بأن حزب كريستيان قد اجتذبنا، أنا وموريسون، إلى صفّه. وكانت شهادة هاليت، الذي أصبح الآن في سن العشرين وأصبحَ نقيباً، لا تقل خطراً علينا؛ فقد أكَّدَ أنه رأى موريسون يحمل بندقية، ورآني في جانب بلاي الذي وجَّه إليّ كلاماً لم يسمعْه، فتولَّيتُ عنه وأنا أضحك. وبعده شهد جون سميث، خادم بلاي، فكانت شهادتُه قصيرةً وغيرَ هامَّةٍ.

١٤. الدفاع

لما كنتُ الطالبَ الوحيدَ، المرشحَ لدرجةِ ضابطٍ، بينَ المتهمين فقد كان من المُنْتَظَرِ أن أُدعَى إلى الدفاع عن نفسي أولَ الجميعِ. كان ذلك صباحَ السبت، فطلبت أن

يُؤجَّل دوري إلى الاثنين. عندها قام كولمان، الذي وَضَحَ من الجلسة الأولى أنه بريءٌ، فقدَّم دفاعاً مقتضَباً؛ ثم سأل فراير وكول وبيكوفر وبورسيل، فأكدوا براءَته جميعاً، وأعلنوا أنه سَتُبقيَ في السفينة رغم إرادته.

وقضيتُ يومَ الأحدِ مع السيد غراهام في دراسة مُسَوَّدَة الدفاع الذي أعددتُه. فاقترح بعضَ التعديل، وعيّن لي الأسئلة التي يجب أن أطرحها على الشهود، وقال:

–لقد أعلن هيوارد أنه كان يقظانَ عندما هبطتَ إلى حجرتك في الساعة الواحدة والنصف، ليلةَ التمرد.. هذه الشهادة هامة جداً بالنسبة إليك.. ولا تنسَ أن هاليت قد سدَّدَ إليك ضربةً شديدةً عندما قال إن بلاي كان يحدِّثُك فتركتَه وأنت تضحك.

– إن كلَّ ما قاله هاليت كَذبٌ في كذب، يا سيدي!

– أنا أعرف هذا.. وفي رأيي أن المحكمةَ لم تأخذ فكرةً طيبة لا عن هاليت ولا عن هيوارد؛ ولكنها لا يمكن أن تُهمِلَ شهادتِهما، على أيِّ حال.. هل تسنّى لك أن تلاحظَ هيوارد وهاليت أثناء التمرد؟

– نعم!.. رأيتُهما عدةَ مراتٍ!

– كيف كان وضعُهما؟

– كانا في غايةِ الاضطرابِ والرُّعب؛ وكانا يبكيان ويسترحمان عندما كانا يُدفَعان دفعاً إلى زورق بلاي!

– إنه هامٌ جداً بالنسبة إليك أن تُبرزَ هذه الناحيةَ عندما تسألُ الشهودَ الآخرين!»

وجاء يوم الاثنين ووقفتُ أمامَ المحكمة، وأنا مضْطَربٌ إلى أقصى حدٍّ. وبعد أن أقسمْتُ اليمينَ، بدأتُ دفاعي، وكأنَّ شخصاً آخَر يتلوه، لا أنا. ولكن عندما مضيتُ فيه، زايلني الخوفُ بالتدريج. قلت:

« سيدي الرئيسَ، سادتي قضاةَ المحكمةِ الموقَّرةِ!.. إنّ جريمةَ التمردِ، التي أنا مُتَّهَمٌ بها، هي من البشاعة بحيث ينبغي أن تُثير اشمئزازَ الناسِ واستنكارَهم.. والذي يرتكبها إنما يرتكب ذنباً لا يُغتفَر. ويشاء سوء حظي أن أقفَ أمامَكم اليوم، وأنا مُتَّهَمٌ بهذه التهمةِ الخَطِيرةِ. إنني مدركٌ تمامَ الإدراك أن الظواهرَ هي ضدي.. الظواهرُ وحدَها فقط.. فأنا أعلن أمامَ اللهِ وأمامَ هذه المحكمةِ أنني بريءٌ! إنني لم أرتكبْ، لا بالفكر ولا بالعمل، هذه الجريمةَ التي أنا مُتَّهَمٌ بها!»

وبعد أن رويتُ قصةَ التمرد كما وقعتْ، قلتُ إنه

من سُوءِ حظي أن يكون ثلاثةٌ ممن يمكنُ لهم أن يُثبتُوا براءتي غيرَ حاضرين. فجون نورتون، الذي كان يعرف نيَّةَ كريستيان في الهرب، والذي صنع له الطَوْفَ بيده، قد مات؛ ونلسون مات أيضاً؛ وروبرت تنكلر، الذي سمع حديثي مع كريستيان، آعتُبِر مفقوداً مع السفينةِ التي كان يعمل عليها.. وبعد أن حُرِمْتُ من شهودي لا أملكُ سوى تأكيدِ براءتي، وأرجو أن تصدِّقوني.. إنني أضعُ مصيري وشرفي بينَ أيديكم.

وبعد ذلك بدأتُ أطرحُ الأسئلةَ على الشهود، لأُبْرِزَ النقطةَ التي نبَّهني السيد غراهام إليها. وقد أجمع فراير وكول وبورسيل على أن هاليت وهيوارد كانا يبكيان عند إنزالِهما إلى الزورق. أما بيكوفر المِدْفَعِيُّ، الذي كان من الممكن أن يكونَ قد سمع حديثي مع كريستيان، فقد قال إنه لم يسمعْ شيئاً، ولكنه رآنا معاً، وهذا ما زاد في إغراقي. ولم يعترف هيوارد بأنني هبطت إلى الحجرة وفي صحبتي تنكلر، الذي ودّعني بالتحية على باب الحجرة؛ كما أن هاليت لم يتزحزحْ عن زعمه بأنه رآني أضحك وأنا ابتعد عن بلاي.

وجاء بعدي موريسون الذي تحدّث بهدوءٍ وثباتٍ؛ وخُيِّلَ إليّ أن دفاعَه كافٍ لتبرئته. وكان هاليت وهيوارد

هما الوحيدين اللذين قالا إنهما رأياه مُسلَّحاً؛ ولكنه أجبرهما على الاعتراف بأنهما كانا مخطئَيْن.

ثم أُوقِفَتِ الجلسةُ ليتناولَ القضاةُ غداءَهم. وفي الساعة الواحدة استمعتِ المحكمةُ إلى نورمان وماكنتوش وبيرن على التوالي؛ وسرعان ما وَضَحَتْ براءتُهم.

وتلاهم بوركيت وميلوارد موسبرات؛ فكان ضُلُوعُ الأوَّلَيْن في المؤامرةِ ظاهراً، لأنهما أعلنا انضمامَهما إلى المتمردين منذ البداية. أما أليسون فقد قال إنه كان صغيراً في ذلك الوقت لا يُقَدِّرُ العواقبَ، وطلب عطفَ المحكمة.

وعندما انتهت الجلسة الثانية كانت الساعةُ قد بلغتِ الرابعةَ، فنُقِلنا إلى سِجننا، لانتظارِ الحُكْمِ.

في صباح الثلاثاء ١٨ أيلولَ عامَ ١٧٩٢ أُخِذْنا إلى قاعة المحكمة. وقد تسارعتْ نبضاتُ قلبي عندما رأيتُ بين جمهورِ المشاهدينَ السيد أرسكين، محاميَ والدي وصديقَ أسرتي؛ وهو رجلٌ طيِّبٌ يبلُغُ السبعين من العُمْر.

سألتْنا المحكمةُ واحداً واحداً إن كان لدينا ما نُضيفه إلى الأقوال السابقة، فأجاب الجميعُ بالنفي. ثم اجتمع القضاةُ للمداولة، التي دامت من التاسعةِ والنصفِ حتى

الواحدةِ. بعد ذلك أخذوا يدعوننا الواحدَ تِلْوَ الآخر للاستماع إلى الحكم؛ فبُرِّئَتْ ساحةُ كولمان ونورمان وماكنتوش وبيرن، وأُخْلِيَ سبيلُهم. أما الباقون، وأنا فيهم، فقد حُكِمَ عليهم بالإعدام شنقاً، على أن يُحَدَّدَ الزمانُ والمكانُ فيما بعد.

ولكن المحكمةَ ظلت منعقدةً، ونحن ننتظر في الخارج: لا بدَّ أن هناك شيئاً ما! وبعد نصف ساعة فُتِحَ البابُ وَاسْتُدعِيَ موريسون مرةً أخرى، وأُبْلِغَ أن المحكمةَ قَدَّمَتِ التماساً بالعفو عنه إلى الملك.. وهذا يعني أن العفوَ يكاد يكون مضموناً. وكان هذا خاتمةَ المحاكمة.

لقد أصبحنا الآن محكومين، وأصبحت معاملتُنا جيدةً؛ وقد خَصَّصَ لي القائدُ مونتاغ، «قائدُ الهيكتور»، حجرةَ ضابطٍ كان في إجازة. ولم يأتِ سير جوزيف لزيارتي إلا بعد يومين. كان يحمل معه مخطوطي. وقد امتدح عملي جداً، وسألني إن كان يكفيني شهرٌ لإعداده للطبع. فأجبت بأنني على تمام الاستعداد لذلك. ولم يتحدَّثْ عن المحاكمة إلا بعد مدة. فقال إن هذا الحكمَ خطأٌ في تاريخ البحرية. وإن الذي ضيّعني هو تقريرُ بلاي الذي لا يهدمه سوى وجودِ تنكلر. فقلت إن الذي أثار في أكثرَ من كلِّ شيءٍ هو الحكمُ على

موسبرات، الذي حمل السلاحَ لاستعادةِ السفينةِ فيما لو قام فراير بعمليةٍ معاكسةٍ، ولما رأى ألاَّ أملَ في ذلك رمى سلاحَه. فأخبر أن هناك أملاً كبيراً في نجاة موسبرات، ولكن لا يجب أن أُطلعَه على ذلك قبل الأوان.

مضيت في إنجاز القاموس، فكان لي علاجاً ناجعاً في الأيام التي تبقت لي على هذه الأرضْ. وما إن انتهيتُ حتى رُحتُ أكتب المقدمةَ. وذاتَ يومٍ جاء لزيارتي الدكتور هاملتون، بينما كنتُ أراجع مقدمتي للمرةِ الرابعة. جاءني مودِّعاً لأنه على أُهْبَةِ السفر إلى «تيرنوف». وفيما كنا نتحدث عمّا قاسيناه على ظهر «الباندور»، وعن غَرَقِ هذه السفينةِ، دخل علينا سير جوزيف وهو مبهورُ الأنفاس، لا يستطيع الكلامَ. أمسكني من كتفيّ وهو يقول: «بايام، يا صغيري العزيز!». وما استرد شيئاً من أنفاسه حتى فاجأني بقوله: «إن تنكلر حيّ.. لقد عاد إلى لندن!»

انحلّت ركبتاي وَانْهَرْتُ على المقعد. فعالجنا الطبيب، أنا والسير جوزيف، بدواءٍ منعشٍ كان معه. بعد ذلك راح سير جوزيف يروي لي أنه قرأ في جريدة «التايز» أن بحارة السفينة «كاريب ميد» الناجين قد عادوا أمسِ، وبينهم تنكلر. فمضى في الحال يفتش عن تنكلر

قبل أن يراه أحدٌ، وأخذه في عربته إلى منزل اللورد « هود »، رئيس المحكمة العسكرية؛ وهو الآن في أيدٍ أمينةٍ، وسيُجْرَى التحقيقُ معه. وفي استطاعة قوميسيري الأميرالية أن ينقضوا حكمَ المحكمةِ العسكريةِ.

١٤. تنكلر

سلّمتُ مخطوطي كاملاً إلى سير جوزيف. وبما أنني قد أنجزتُ هذا العملَ، فقد طلبتُ إعادتي إلى الحجرةِ الكبيرةِ حيثُ الرفاقُ، لأنّ احتمالَ الانتظارِ أسهلُ معَ المجموعةِ. ولم أُطْلِعْ على عودة تنكلر سوى موريسون؛ إذ ليس من الإنسانية أن أتحدَّثَ في هذا الموضوع إلى اشخاصٍ فَقَدوا كلَّ أملٍ في الحياة.

وبعد ظهرِ الأحدِ كان موريسون يقرأ الإنجيلَ بصوتٍ موسيقيٍّ، وقد وقف قربَ النافذةِ، ليرى بمزيدٍ من الوضوح. وفجأةً توقّفَ عنِ القراءةِ. وما هي إلا ثوانٍ حتى فُتِحَ البابُ، وظهر ملازمٌ من مشاة البحرية ووراءه مدرِّبُ السلاح وفرقةٌ منَ الحرسِ قِوَامُها ثمانيةُ رجالٍ. وكان مدرِّبُ السلاحِ يحمل ورقةً؛ فاقتربَ من النافذةِ وقرأ:

« توماس بوركيت، جون ميلوارد، توماس أليسون! »

وأصدر الملازمُ أمرَه:

« المساجينُ المذكورون.. تَجَمَّعْ! »

فاتّجه الثلاثةُ إلى باب الحجرةِ؛ فوُضِعتِ الفيودُ في أيديهم، وخرجوا وَسَطَ الحرس، دونَ كلمةِ وَدَاعٍ. ووقفْنا، نحنُ الثلاثةَ الباقين، كأنَّ على رؤوسِنا الطيرَ. ولم تمض مدة قصيرةٌ حتى رأينا قارباً من قوارب « الهيكتور » يبتعد عن سُلَّمِ السفينةِ؛ واستطعنا أن نميّز، في الأشعةِ الأخيرةِ لذلك النهار الخريفيِّ، رفاقَنا الثلاثةَ على المقعد الخلفي. واتجه القارب نحو السفينةِ الملكيّة « برنسويك »، واختفى في صدرها. ولم ننمْ تلك الليلةَ، بل لَبِثْنا نتحدّث عن الثلاثةِ المساكين الذين كانت تلك آخرَ ليلةٍ لهم. ولِمَ تركونا نحن، أنا وموريسون وموسبرات؟! كان ذلك موضوعَ حديثٍ آخَرَ وتكهُّناتٍ حتى الصباح.

في الساعةِ التاسعةِ كان موريسون يقفُ عندَ النافذةِ؛ وعيناه متجهتان الى « برنسويك »؛ فالتفتَ إلينا وقال: « لقد رفعوا علامةَ العِقاب على « البرنسويك »! » كان الوقتُ لتنفيذِ عقوباتِ الإعدامِ هو الساعةَ الحاديةَ عَشْرَةَ، على جميع السفن البريطانية: فلم يبقَ إذن أمام أليسون وبوركيت وميلوارد سوى ساعتين!

وبُعَيْدَ الساعةِ العاشرةِ دخل علينا القائد مونتغيو ومعه الملازمُ الذي جاء بالأمسِ. وأمر الملازمُ الحرسَ بأن يفكّوا الحراسةَ؛ فابتسموا لنا، وفهمْنا فوراً مغزى تلك الابتسامةِ. بعد ذلك نشر القُبْطَانُ ورقةً، وقرأ فيها أولاً قرارَ العفوِ الملكيِّ عن جيمس موريسون ووليام موسبرات. ثم قرأ قرارَ نقضِ الحكمِ عليَّ وتبرئتي؛ وأقبل علينا يهنّئُنا بحرارة.

ونَقَلَنا قاربٌ إلى البرِّ. وكان القبطان قد سلّمني رسالة من سير جوزيف يُخبرني فيها بأنه حجز لنا ثلاثةَ أماكنَ في عربةِ لندن، وأن السيد إرسكين ينتظرني في منزلِهِ؛ وبما أنني محتاجٌ إلى فترةِ وَحْدَةٍ واستجمامٍ، فهو يرجوني أن أُرْسِلَ إليه كلمةً بعد أن أكونَ قد شبعتُ منَ الانفراد.

ودَّعْنا بعضَنا في لندن، فذهب موسبرات إلى « يارموث »؛ ومضى موريسون ليسافر إلى الشَّمَال؛ أما أنا فقد توجَّهْتُ إلى منزل السيد إرسكين، الذي كان يعيش مع ثلاثِ خادماتٍ مسنّاتٍ، كان ذلك المنزلُ، في « فيغ تري كورت »، هو المكانَ المثاليَّ للراحةِ التي كنتُ في حاجة ماسَّةٍ إليها. كنت أتسكَّعُ في الشوارع القريبة وأقضي النهارَ دونَ أن أفكِّرَ في شيْء.

وبعد أيام، ولدى عودتي في الخامسة من نزهتي الاعتيادية، وجدْتُ تنكلر في انتظاري. وقد أرسل لي السيد إرسكين كلمةً يعتذر فيها عن العودةِ إلى المنزل لأنه مشغولٌ؛ ولعله كان في حجرته، ولكنه أراد أن يتركَنا وحدَنا تلك الليلةَ لنتحدَّثَ بحريةٍ. والواقع أنه كان لدى كلٍّ منَّا كلامٌ كثيرٌ، حتى إننا لم نعرفْ من أين نبدأ. روى لي تنكلر كيف اختطفه سير جوزيف وهو يستعدُّ لتناول فطوره، وكيف طار به إلى منزل الأميرال هود، وهو لا يدري سبباً لذلك، ثم كيف قُدِّم أمامَ قوميسيري الأميرالية، وكيف أدلى بشهادته بعد أن أفهمَه هؤلاءِ الضباطُ الكبارُ الغرضَ من سؤاله. وتحدَّثَ إليّ كذلك عن رحلةِ مركب بلاي إلى تيمور، ووصف الأهوالَ التي قاسوها... وظللنا نتسامر حتى الثالثةِ بعدَ منتصَفِ الليل.

بعد أسبوع من إقامتي في منزل السيد إرسكين وجّهتُ إلى سير جوزيف الرسالةَ التي كان ينتظرها مني. وكان ردُّه هو دعوتي إلى العشاءِ في داره. وجدتُ عندَه القبطانَ مونتغيو، قائد « الهيكتور ». وبعد أن طرقْنا أحاديثَ شتى، التفَتَ إلي سير جوزيف وسألني:

ـ ما هي مشاريعُك، يا بايام؟.. أستعودُ إلى الخدمة في

البحرية، أم ستذهب إلى أوكسفورد حسبما كانت رغبةُ والدِك؟

– لا هي ولا ذاك، يا سيدي!

فنظر إليّ دهِشاً. فقلت إنه لم يعدْ يربطُني أيُّ شيء بإنكلترا بعدَ وفاةِ والدتي؛ وباستثناء عددٍ منَ الأصدقاءِ، لا أحبُّ أن أرى وجهاً إنكليزياً. وقد وطّدْتُ العزمَ على السفر إلى البحار الجنوبية. فنظر سير جوزيف إلى القائد «مونتغيو»، كأنه يَستنجد به. فأخذ القبطان يثبت لي أن وجودي في البلاد ضروريٌّ لِغَسْلِ اللطْخَةِ التي لَحِقَتْ باسمي، رغم تبرئتي عندَ آخر لحظةٍ. وأعلن لي أنه أعدّ لي مركزاً على سفينتهِ «هيكتور»، وأنه يتركُ لي فرصةَ شهرٍ للتفكير.

وما إن انصرف مُونتغيو حتى أقبل عليَّ سير جوزيف يقول:

«أَوَدُّ أن أطرحَ عليك سؤالاً يُلِحُّ علي منذ وقتٍ طويل؛ وأنت تعرف أنني إذا عاهدْتُ لا أُخْلفُ العهد؛ ولك عليّ، إن أجبتني، ألا أبوحَ بالسرِّ لأحد!»

قلت: سَلْ، يا سيدي!

– أين ذهب فلبتشر كريستيان؟

– أُقسمُ بشرفي إنني لا أعلم!.. كلُّ ما أعرفه هو أن كريستيان قال إنه سيقصد إلى جزيرةٍ مجهولةٍ!

بعد ذلك غادرتُ منزلَ السيد إرسكين شاكراً له حُسْنَ ضيافته. وسافرتُ إلى «كمبرلند» لزيارة والده كريستيان، ولن أتحدَّثَ عن هذه الزيارةِ. ثم زرتُ منزلَنا في «ويذيكومب»، حيث ذكرياتُ الطفولةِ وصورةُ الأمِّ التي شَغَلَتْني عنها أهوالُ السنواتِ الماضيةِ. وجدتُ مربيتَنا «ثكر» في انتظاري عند المدخلِ، ومعها الخَدَمُ الآخرون.. لقد كان ينقُصُ المستقبلين إنسانٌ طالما تَمنّيتُ أن يكونَ حاضراً لدى عودتي.

قضيتُ تلك الليلة في حجرة والدتي أستعيدُ ذكرى الأيامِ الجميلةِ التي ضاعتْ إلى الأبد.

وصِرتُ بعد ذلك أقومُ برحلاتٍ طويلةٍ في الحقول، وشيئاً فشيئاً بدأتُ أُدركُ أن لي جذوراً في هذه الأرض لا يمكن اقتلاعُها.

١٦ . الخاتمة

التحقت بسَفِينَةِ القبطان مونتغيو في شهرِ كانون الثاني ١٧٩٣، وفي الشهر الثاني بدأتِ العملياتُ الحربيةُ،

التي واجهتْ فيها بريطانيا حِلفاً أوربياً قوياً، وخاضتْ أقسى المعاركِ البحريةِ؛ وبعد معركةِ «ترافلغار» الظافرةِ بقيادةِ «نلسون»، ضد أُسطولَي فرنسا وإسبانيا، رُقِّيتُ إلى درجة قبطان.

وخلالَ هذه الفترةِ كلِّها كنت أُمَنِّي النفسَ بأن أُرْسَلَ إلى المحيطِ الهادىء. ولكن الضابطَ، في زمنِ الحربِ، ليس لديه وقتٌ للتفكير. وهكذا مع السنين أصبحتِ الرغبةُ في العودة إلى بحار الجنوب أقلَّ إلحاحاً. ولم أستطعْ تحقيقَ حلمي إلا في صيف عام ١٨٠٩، عندما تسلَّمْتُ قيادةَ السفينةِ الحربيةِ «كيريوز»؛ فقد تلقيتُ الأمرَ بالإبحار إلى «بورت جاكسون» في «غال الجنوبية الجديدة»، ثم إلى «فالباريزو»، عن طريق تاهيتي. كان على ظهر سفينتي نصفُ سريّةٍ منَ الفرقة ٧٣؛ وكان هؤلاء الجنودُ مرسلين ليحُلُّوا محلَّ الحاميةِ في «الغال الجنوبية الجديدة». أما باقي الفرقةِ فكان قد أُرسلَ على السفينتين «دروماديز» و«هندستان». وكان اللورد «كمدن»، استجابةً إلى توصية من سير جوزيف بنكس، قد عُيِّنَ، منذ أربع سنواتٍ، القبطانَ بلاي حاكماً على هذه المستعمَرَة. وقبل وصولي كانت هناك اضطراباتٌ في المستعمرَةِ، ترجع إلى نحو عامٍ مضى؛ وقد عُيِّنَ حاكمٌ جديدٌ، في تلك الأثناء هو

الكولونيل «لاتشلان ماكاري»؛ وكانت التهمُ الموجهةُ إلى القبطان بلاي، من قِبَلِ الماجور جونستون، أقدمِ ضباطِ الحاميةِ، والسبد ماك أرثر أوسعِ المستوطنين الإنكليز نفوذاً في المستعمرة، هي القسوةَ واستغلالَ السُّلُطَاتِ بصورةٍ استبدادية.

وخلال رحلتي لم يغبْ بلاي عن مُخَيِّلَتي؛ لم أكنْ أفكِّرُ في إهانته أمامَ المَلَإِ، ولكنني كنت أتصوَّرُ أنني غيرُ قادرٍ على أن أضع يدي في يده.

في شباطَ عام ١٨١٠ دخلتْ سفينتي «كيريوز» مرفأَ «بورت جاكسون». هبطْتُ إلى البرِّ لأدبرَ أمرَ إنزالِ الجنودِ، وأزورَ الحاكمَ الجديدَ. عندما دخلتُ إلى قصر الحاكم أخبرني السكرتيرُ أن الحاكمَ مشغولٌ، وطلب إلي الجلوسَ في حجرة الانتظار. وسمعتُ من وراءِ بابِ المكتبِ صوتاً مرتفعاً حملني عشرين سنةً إلى الوراء، إلى أيامِ الباونتي قبلَ التمرُّدِ، إنه الصوتُ نفسُه.. صوتُ بلاي، الذي كان يقول لكريستيان: «أنت، أيُّها الكلبُ القذرُ!».. إنه يعلو الآن بالشتائم نفسِها. وكنتُ أسمع صوتَ الحاكمِ الجديدِ، وهو يُجيب بأدبٍ واتِّزانٍ. ثم فُتِحَ البابُ بعنفٍ وخرج بلاي هائجاً، ومرَّ دون أن يلتفتَ إليَّ

أو إلى السكرتير الذي فتح له بابَ حجرةِ الانتظارِ وحيَّاه.

وصلنا إلى تاهيتي ذاتَ صباحٍ من أوائلِ نَيْسَانَ، ودخلْنا خليجَ «ماتافي». منذ أن عانقتُ زوجتي وطفلتي على ظهر الباندور، من عشرين سنةً، لم أستطعْ أن أقفَ على شيءٍ من أخبارهما. ولكنَّ تاهيتي كانت خلالَ هذه المدةِ مسرحاً للحرب بين الوطنيين والأوباء.. ها هي ذي قمةُ «فينوس»، وهضبةُ «الشجرةِ الوحيدةِ»، وجزيرةُ «موتوو» المواجهةُ لمنزل هيتيهيتي... وهذا هو النهرُ الذي التقيتُ على ضفافِه تيهاني. يا لها من ذكرياتٍ يَزْحَمُ بعضُها بعضاً في مخيِّلتي، وأنا أقلِّبُ عينيّ في تلك الربوعِ، التي قضيتُ فيها فترةً من أمتعِ أيامِ الشبابِ. وأشدُّ ما أدهشني ألا أرى الزوارقَ الوطنيةَ تُقبلُ علينا. وأخيراً تقدّم زورقٌ واحدٌ فيه رجلان يرتديان الأسمالَ، وليس معهما شيءٌ مقابلَ الهدايا التي حملناها. سألتُهما عن «بوانو» و«تيبو» وهيتيهيتي، فلم أظفَرْ منهما بجوابٍ واضحٍ. نزلتُ وطوّفتُ فرأيتُ منزل هيتيهيتي قد زال، ووجدتُ الدمارَ في كلِّ بُقْعةٍ. صادفتُ امرأةً عجوزاً، فسألتُها عن هيتيهيتي، فقالتْ إنها سمعتْ به، ولكنه مات؛ ومات كذلك بوانو، الذي تذكرُه دونَ الباقين ودونَ

«هيا» أيضاً.. وقالت متأوّهةً:

«لقد كانت تاهيتي أرضَ الرجالِ آنذاك، أما الآن فلا يسكنُها سوى الأشباحِ!»

واستطعتُ أن أجدَ طريقي إلى النهر. نهري أنا ونهر تيهاني!.. إنه ما زال على عهدي به، والشجرةُ التي تظلله ما زالتْ قائمةً، ولكنها أصبحتْ أضخمَ وأعلى.. ولكن.. أين الأصدقاءُ؟!.. لقد ماتوا جميعاً!.. إنني مستعدٌ للتنازل عن كل شيء.. عن كل ما أملكُ لقاءَ أن أعودَ عشرين عاماً إلى الوراء، وألعبَ على ضفة هذا النهرِ مع تيهاني!

في اليوم التالي ذهبت إلى «توتيرا» علّني أرى تيهاني وابنتي. لاحظتُ بسرورٍ أن «مملكةَ» فهياتوا السابقةَ لم تدمرْها الحروبُ، غيرَ أن الأوباءَ فعلتْ فعلَها فيها، فكادت تخلو من الناس. لم أجد منزل فهياتوا، ولكنني وجدت منزلي، أو منزلاً شبيهاً به في المكان نفسِه. وفي منتصفِ الطريقِ إلى بيتي قابلني رجلٌ متوسطُ السنِّ. وقف كلانا ينظر إلى الآخر لحظةً، صِحتُ على أثرها:

«تواهو!»

فهتف هو الآخرُ:

«بايام!»

وبعد أن تعانقنا على الطريقة التاهيتية، قال:

- تعالَ إلى منزلي!

- انتظرْ!.. أين تيهاني؟

فنظر إلي بحزن وقال:

- لقد ماتت بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ من رحيلك!

- وابنتنا؟

- أصبحت زوجةً، ولها طفلٌ!.. إن زوجَها هو ابنُ أتوانوي..

- أتريد أن ترى ابنتَك؟

قال هذا وانتظر جوابي صامتاً.. قلت:

-أنت تعرف، يا صديقي، مدى حبّي لها؛ لقد كنتُ أحلُمُ، خلالَ السنين الطويلةِ التي واجهتْ فيها بلادي حروباً طاحنةً، بالعودة إلى هنا.. إن هذا الشاطئ أصبح مقبرةَ أحلامي، وإن حزني لعظيمٌ!.. إنني أريد أن أرى ابنتي، ولكنني أحبُّ ألاّ تعرفَ أنني والدُها.. إن الموقفَ صعبٌ بعدَ تلك السنين.. أتفهمُني؟!

- فهمتُ!

وهنا سمعتُ صوتاً قادماً؛ فلمس ذراعي، وقال:

« ها هي ذي!»

وناداها: « تيهاني! هذا هو قائدُ السفينةِ!»

وتسارعتْ دقاتُ قلبي!.. وقفتْ أمامي ومدَّتْ إليّ يدَها بلطفٍ.. وأخذتْ تتأملني بعينين لونُهما بلونِ البحر.. إنها مزيجٌ مني ومن والدتِها. وأشحتُ بوجهي، وقد فاضتْ عيناي بالدموع. قالت لخالها:

« يجب أن نمضيَ!.. لقد وعدت ابني بأن أريَه السفينةَ الإنكليزية!»

قال: « اذهبي!»

فمضتْ وخادمتُها وراءَها تحمل حفيدي!

غادرنا تاهيتي، وكان علينا أن نتَّجهَ جنوباً بشرقٍ، لنخرجَ من منطقةِ الرياحِ السائدةِ. وعندَ خطِّ العَرْضِ ٢٥ أخذنا وِجهةَ الشرقِ. وفي صباح ١٥ أيارَ صاح المراقبُ: « اليابسة!» كان ذلك مَثَاراً لِلَّغَطِ بين رجالي. ذلك أننا اكتشفنا جزيرةً جديدة، إذ لا أثرَ لهذه الأرضِ على الخرائطِ. وعند الظهرِ كنا قريبين من هذه الجزيرةِ الصغيرةِ البالغةِ الروعةِ. كانت جبالُها الصعبةُ المُرْتَقَى

تنحدرُ في بعض الأماكنِ على شكلِ صخورٍ قائمةٍ.

ولم أَشُكَّ في أنَّ جزيرةً بهذا الحجمِ الصغيرِ يمكن أن تكونَ غيرَ مسكنٍ للطيور؛ لذا دُهِشْتُ غايةَ الدَّهَشِ عندما رأيت زورقاً فيه رجلان يجذّفان بقوّةٍ، ويتقدمان نحوَنا بسرعةٍ. فأوقفْنا السفينةَ وانتظرْنا. ولما أصبحا في مواجهتنا، صاح أحدُهما بالإنكليزية: «هل لكم أن تلقوا إلينا حبلاً، يا سيدي!»

أولُ فكرةٍ تبادرت إلى ذهني هي أن يكون الشابان ناجيين من سفينةٍ بريطانيةٍ غارقةٍ كان جسدهما ملوَّحَيْن بالشمس، كأجساد التاهيتيين، وكانا يرتديان الإزار التاهيتي، غير أنهما كانا يعتمران قبعتين من القَشِّ مزينتين بريش الديوك. كانَ أكبرهُما في نحو التاسعةَ عَشْرَةَ والثاني في الخامسةَ عَشْرَةَ. سلّما عليّ بلغةٍ إنكليزيةٍ أدركتُ من خلالها أنهما غيرُ مولودين في إنكلترا. وسألتُ الكبيرَ عن اسمه فقال: كريستيان!.. إذن فقد كنتُ أمامَ ابنِ فليتشر كريستيان! يا لَعَجيبِ الصُّدَفِ!.. إنه صورةٌ لأبيه: العينين السوداوين نفسِهما، الشعرِ نفسِه.. الوجهِ نفسِه ذي القسماتِ التي تَنُمُّ عن الإرادة والسطوةِ!.. قلت:

«أين والدك؟»

قال: «إن والدي تُوُفِّيَ بعد مولدي!.. إنه يدعى فليتشر كريستيان!»

وكان الفتى الثاني هو إدوارد يونغ، ابنُ رفيقي في الحجرة على ظهر الباونتي.

دعوتُ الشابين إلى تناول الغَدَاءِ معي. كانا يتحدثان ويقول كل منهما: «والدنا!» وبدَّدَ كريستيان عجبي عندما قال: «إن والدَنا المشترَكَ هو الكسندر سميث.. ليس لنا غيرُه الآن!» قلت: «ألا يوجد غيرُه من الرجال المسنِّين؟» فأجابا بالنفي. إذن أين ميلز وبراون ومارتن وماك كوي وويليامز وكنتال؟

هبطت إلى الجزيرة في زورق هذينْ البحارَيْن الماهرَيْن. وما إن وصلْنا إلى الشاطىء الرملي، وهبطْنا حتى حمل الفتيان قاربَهما الصغيرَ على كاهليهما وسارا أمامي، في الدربِ الصاعدةِ نحوَ القريةِ. كان المرتفع تكسوه الخُضْرَةُ؛ وقد نَمَتْ فيه أشجارُ «الخبز» والموز. ووصلنا أخيراً إلى بيوتٍ أربعةٍ متقاربةٍ من الخشب، يتألَّف كلٌّ منها من طبقتين. وكان يرتفع، غربَ هذه المستعمرَةِ الصغيرةِ، جبلٌ شاهقٌ، ينتهي، من ناحية البحر، بهُوَّةٍ سحيقةٍ. وعرفت فيما بعد أن كريستيان كان يقصد إلى كهفٍ في تلك الناحية المُطِلَّةِ على البحر، ليراقبَ

منه السفنَ التي قد تمر

ورأيت مجموعة من الناس مقبلةً عليّ، يتقدمها رجل متوسط السن؛ إنه الكسندر سميث، وصيفي السابق على الباونتي. قال وهو يحيِّيني:

«سنعمل ما في وِسْعِنا، يا سيدي، لكي تكونَ مُستريحاً بيننا!»

قلت:

«سميث! ألم تعرفْني؟»

فأجاب بعدَ تفكيرٍ وتحديدِ نظر:

«يا لَلَّهِ.. ألبستَ السيدَ بايام؟» وصاح: «ميميتي! وتوروا! بلعادي.. اقتربن.. هذا هو السيد بايام!» وكانت توروا زوجةُ يونغ أولَ من عرفني، فأقبلتْ تطوِّقني بذراعيها وتبكي. لقد تركتُها في السابعةَ عَشْرَةَ، ولكنَّ وجهها الآن ممتلئٌ بالتجاعيد. أما ميميتي فقد احتفظت بشيءٍ من جمالِها القيمِ. كان عدد الجماعةِ يبلُغُ خمسةً وثلاثين عضواً.. إنهم أبناءٌ وبناتُ كريستيان ويونغ وسميث وماك كوي وكنتال. ماري كريستيان هي الآن في السابعةَ عَشْرَةَ، مثلُ أمِّها، كما عرفتُها في الماضي.

وأخبرني سميث أن كريستيان، بعد أن أنزلهم إلى

البرِّ، وأنزلَ كلَّ ما كانت تحمله الباونتي، حطَّمها على الصخور وأشعل فيها النيران. وبعد مدةٍ وقعتْ مذبحةٌ بينَهم وبينَ التاهيتيين الذين اتّخذهم بعضهم كعبيد وأساؤوا معاملتَهم. وقد قتل كريستيان وعددٌ من رفاقه على يد التاهيتيين، ولم يعلمِ الصغارُ بما حدث لآبائهم. ولكن الباقين قضوا على التاهيتيين عام ١٧٩٣، بعدَ مَقْتَلِ كريستيان. وقد بقي من رجال الباونتي أربعةٌ هم يونغ وماك كوي وكنتال وسميث. وكان ماك كوي، في الماضي، عاملاً في معملِ تقطيرٍ للخمرةِ في اسكتلندة؛ فصار يصنع، هو وكنتال، خمرةً من بعضِ الجذور؛ ولم يُرَيَا بعد ذلك إلا سكرانَيْن. وفي نوبةِ سكرٍ شديدةٍ رمى ماك كوي نفسَه من أعلى الشِّيرِ وتحطّمَ. وظلّ كنتال مصدرَ إقلاقٍ وعدوانٍ، فاضْطُرَّ يونغ وسميث إلى قتله. وهكذا بقي اثنان فقط من الخمسةَ عَشَرَ رجلاً. ولكن يونغ أُصيبَ بمرضٍ ومات في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٠. وأضاف سميث قائلاً:

«لكم صلَّيت لله، يا سيدي، أن يحفظَني لأُربِّيَ هؤلاء الأولادَ إلى أن يبلُغوا أَشُدَّهم ويستطيعوا خدمةَ أنفسِهم؛ وقد استجاب اللهُ دعائي!»

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

●

١ ـ روبنسون كروزو
٢ ـ كوخ العم توم
٣ ـ آخر ايام بومباي
٤ ـ جزيرة الكنز
٥ ـ البؤساء
٦ ـ دايفيد كوبرفيلد
٧ ـ حول العالم في ثمانين يوما
٨ ـ قصة مدينتين
٩ ـ اوليفر تويست
١٠ ـ الزنبقة السوداء
١١ ـ القلعة
١٢ ـ مرتفعات ويذرنغ
١٣ ـ الفرسان الثلاثة
١٤ ـ آيفنهو
١٥ ـ دون كيشوت
١٦ ـ بائعة الخبز
١٧ ـ احدب نوتردام
١٨ ـ طفل من غير اسرة
١٩ ـ كولومبا
٢٠ ـ تمرّد على السفينة باونتي